

تأليف:

د. نايف بن محمد اليحيى

تقديم:

أ.د. خالد بن علي المشيقح


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

الحَمد لله رب العَالمين، وصَلى الله وسَلم وبارك على خَاتم النبيين، وخَليل رب العَالمين، وعلى آله وصَحبه أجمَعين، أما بعْد:

فأقدم كتَابي هذا لكل مُحب لهدي المصطَفى ﷺ وسِيرته، وقد حرصْت على إظهار جَوانب التكَامل في شَخص رسول الله ﷺ، وذِكر الأخبَار في ذلك مُضمنة بعض الفَوائد، ومزجتهَا ببعض مُلتقطات الأدب، وروائع الأبيَات، وليس لي منها إلا النقل والاختيار، وقد رجَعت إلى أصول كتُب السنَّة والسِّيرة لمحاولة توثيق النص وضَبطه، ولم أتوسع في العزو لئلا يطول الكتاب وتكثُر الحواشي، وحاولت ذكر ما صَح من الأحاديث، وأما القصص فلم ألتزم فيها بالصحة، وقد كان الأئمة يتسامحون في مرويات السير والمغازي ما لم تتضمن حكمًا.

قال الإمام عبد الرحمن ابن مهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما أخرجه البيهقي في المدخل: «إذا روينا عن النبي ﷺ في الحلال والحرام والأحكام، شددنا في الأسانيد، وانتقدنا في الرجال، وإذا روينا في الفضائل والثواب والعقاب، سهلنا في الأسانيد وتسامحنا في الرجال».

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأحاديث الرقائق يحتمل أن يتساهل فيها حتى يجيء شيء فيه حكم».

وقال في رواية عباس الدوري عنه: «ابن إسحاق رجل تكتب عنه هذه الأحاديث - يعني: المغازي - ونحوها، وإذا جاء الحلال والحرام أردنا قومًا هكذا، وقبض أصابع يديه الأربع»[1].

وكنت قيدت النقول التي أوردتها في الكتاب قديمًا، وبعضها لم أقيد مرجعه في ذلك الوقت، فما وضعته من كلام بين علامتي تنصيص فهو من نقلي لا من قولي.

وطبع أول طبعة عام ١٤٢٧هـ ثم طبع ثانية، وهذه الطبعة الثالثة تمت مراجعته فيها وتنقيحه وإضافة بعض الفوائد.

وقد تولى طبعه الإخوة الكرام في مكتب الدعوة بالمريدسية ببريدة جزاهم الله خير الجزاء وبارك فيهم.

وهذا جُهد المقِل، ومن كان لديه إفادة أو تصْويب فليكرمني به على أحد برامج التواصل

نايف اليحيى

   @naif_alyahya

وله مني الشكر والدعاء



---

(١) ينظر: الكفاية في علم الرواية للخطيب (ص٣٦٢)، فتح المغيث (١/ ٣٥٠)، النكت على كتاب ابن الصلاح لابن حجر (٢/ ٨٨٨).



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحَمدُ لله وحْدَه، والصَّلاة والسَّلام علَى من لا نَبي بعده، وبعْد: فقَد قرَأت في الكتَاب الذي هُو بعُنوان: **(من مقَامَات النُّبوَّة)** لمؤلِّفه/ **نَايف بن مُحمَّد اليَحيَى**، فألفَيته كتَاباً جَيداً، اعتمَد فيه مُؤلفُه على كَثيرٍ من كتُب السُّنة والسِّيرة، وتحرَّى في كَثيرٍ من المواَضع ما ثَبت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك، وقَد جَاء بأسلُوبٍ أدَبي، وعبَارةٍ سَهلة، نفَع الله به كَاتبه وقَارئَه، وبالله التَّوفيق.

كَتبَه

أ.د. خَالد بن عَلي المشَيقح

الأستاذ بكلية الشريعة في جامعة القصيم

والمدرس في الحرمين الشريفين





﴿ بين يدي المقامات ﴾

لا يَزال المؤمن يجتَني أطَايب الحكَم، وجَوامع الكَلم، وكَرائم الأخْلاق، وفرَائد الآدَاب، كلمَا أعَاد النظَر في سِيرة الحبيْب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمعَن القرَاءة فيها، فَهي بحَق مأدُبة فضَائل، ومَائدة شمَائل، ينهَل منها الكبَار، ويتَربى على مُثُلها الصِّغار، فليسَ لأحَدٍ الاستغنَاء عنهَا، عَالمـاً أو مُتعَلمـاً، صَغيراً أو كَبيراً، ذَكراً أو أُنثى، فَهي المعين الصَّافي، والسَّبيل الشَّافي، لكلِّ من أراد الأنسَ والسَّعادة والفَائدة.

لذَا عُني بها السَّلف والأئمَّة عناية شَديدة، فَهذا علي بن الحسَين رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول:** " كنَّا نُعلَّم مغَازي النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كمَا نُعلَّم السُّورة من القُرآن".

ويقُول إسماعيل بن محمَّد بن سَعد بن أبي وقَّاص رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كان أبي يعَلمُنا مغَازي رسُول الله يعدُّها عَلينا، ويقول: هذه مآثر آبائكُم فلا تضيِّعوا ذكرَها".

ويقول الإمام ابن كَثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولا يجمُل بأولي العِلم، إهمَال مَعرفة الأيام النبَويَّة، والتَّواريخ الإسْلامية".

وبناءً على ذلك ورغبةً في الإسهَام في رشْفةٍ من رَحيق إمام هذه الأمة ونَبيهَا وقائدهَا، ذكَرت إشَاراتٍ وإلماحاتٍ، وإضَاءاتٍ وَوَمضَاتٍ، من عَبير تلك المقَامات، التي قامهَا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ....

أسْأل الله أن ينفَع بها قارئهَا وكَاتبهَا . . . إنه جَوادٌ كريمٌ . . .



من مَقَامَاتِ النُّبُوَّة

لما أَرَدت استِهْلال هذه المقَدمَة وكتَابتهَا، ووضَعت قَلمي على الورق، جَرى بسُرعةٍ ومضَى بخفَّة، يسَطر غَرامَه وأشوَاقه، وحُبه ومودته، ولهفَتَه وحُرقَته، وهو يلتَفت يَمنةً فيرى المحبِّين في لُهَاثهم، ويسْرة فإذا الغَارقون في شَهواتهم، فسَطر بمِداد الحُب حُروف الأشواق، وأخَذ يدبِّج العبَارات، ويصُوغ المقَامات، ويصْدح بهذه الكلمَات

فمن شَـاء فليَذكر جمَال بُثينَةٍ ... ومن شَاء فليَغزل بحُب الرَّبائبِ
سَأذكُـر حُبي للحَبيب محمَّدٍ ... إذا وصَف العشَّاق حُب الحبَائبِ
ويبْدو محيَّاه لعَيني في الكَرى ... لنفْسِي أفديْهِ إذاً والأقَـاربِ
وتُدركُني في ذكـرِه قَشعَريرةٌ ... من الوَجد لا يحوِيه عِلم الأجَانبِ

إن لكِل رسَالة من الرسَالات وأمةٍ من الأمم أمجَاداً وحضَارات، ومزَايا ومآثر تتَشَرف بها وتتَبنى فضَائلها، وإن لهذه الأمَّة مقَامًا خَاصًا، وشَرفًا رَفيعًا، ومنَاقب متَميزة؛ ذاك أنها «تُوفِي وتُتِم سبعين أمة يوم القيَامة، هي خيرها وأكرمُها على الله عَزَّوَجَلَّ»[١].

بل جَعلها الله شَاهدةً وشهيدةً على الأمم قبلها، فعَلى كل مؤمن أن يحمد ربه من أعمَاق قلبه، مغتبطًا مجتذلاً رافعًا أسمَى آيات الثنَاء والمدْح والتمجِيد، مبتهلاً إلى المالك الأحَد، قائلاً في صِدق وحب ووفَاء:

ومـمَّـا زَادني شَـرفـًا وتيـهـًا ... وكـدتُ بأخمُصِي أطَـأُ الثُّريَّا

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٣/ ٢١٩)، وقال ابن تيمية: حديث جيد. الجواب الصحيح (٢/ ٢٣٢).



دخُولـي تحْت قولك يـا عبَادي وأن صَـيَّـرت أحـمَـد لـي نبيًّا

إذا أرَدت أن تجعَل يومَك عيداً، ولحظَاتك أنسًا، وحَياتك سعادةً فلتكن مع سيرة وهدي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

"عَزَفت الأقلام بسِيرته فكَانت أروَع ما كتبَت، وتنَاقل الأجيَال أخبَاره فكان أمتَع ما سمعَتْ؛ أُذن الخَير الذي استَقبل آخرَ رسَائل السَّماء لهدَاية الأرض، خير من مشَى على قدَم، وخَير من أُرسِل للأمَم، وخير من حَكم وعَدل، سبَّح الحصَى في يديه، وسَلم الحجَر عليه، وشَكا الجمَل إليه، وبكَى الجذع على فرَاقه، ونبع الماء بين أصَابعه، وشَهد الذئب لرسَالته، وكثُر الطعَام ببركته، وكلَّمه ذرَاع الشَّاة، وظَلله الغمَام، وحَدثه الطَّير"[١].

ولـه كـمَـال الـدِّيـن أعـلَـى هـمَّـةً يـعْـلـو ويـسْـمُـو أن يـقَـاس بـشَـانِ
لـمـا أضَــاء عـلـى الـبَـريَّـة زانـهَـا وعَــلا بـهَـا في طـاعـة الـرحـمـنِ
فَوجَدت كل الصَّيد في جَوف الفَرا ولـقِـيـتُ كُـل الـنَّـاس في إنـسَـانِ

مهمَا أوتي الأدَباء من أعنَّة الفَصَاحَة، وأزِمَّة البَلاغة، وجَوامع الكَلم، وبَديع النَّثر، وجَزيل الشِّعر، ورَوائع النَّظم، ومهمَا تبَارت القَرائح تشْدو أناشِيْد عَظمَته، فسَتَظل خَجْلى أمَام زكَاء سِيرته وصَفَاء سَريرته.

يَـروحُ بـأروَاحِ المحَامدِ حُسنهَا فَيْرقى بهَا في سَاميَاتِ المفَاخِرِ
وإن فُضَّ في الأكْوان مِسْك ختَامهَا تـعَـطـرَ مـنـهَـا كُـل نـجْـدٍ وغَـائـرِ

ما من نَبي من الأنبيَاء ولا مَبعُوث من الرُّسل إلا وأُيِّد بآية ثم ذَهبَت، ومعْجزَة

(١) الزهاد مائة (ص٧)، وانظر هذه المعجزات في كتاب: دلائل النبوة لأبي نعيم وكذلك كتاب البيهقي في نفس العنوان.



ثم انصَرمت، وشَريعةٍ ثم نُسخَت؛ لكِن آيتَه ومعجِزته خَالدَةٌ تَالـدَةٌ باقيـةٌ ما بقي النيِّران، وما وجد في الأرضِ إنسَان

جَاء النَّبيون بالآيات فانصَرمَت ... وجِئتنَا بحَكيمٍ غَير مُنصَرمِ
آياتُه كلمَا طَالَ المدَى جُددٌ ... يزينهُن جَلالُ العِتق والقِدمِ

«جَاءت أخْلاقه بنَسَق متكَافئ فَزهْده كَجُوده، وكرَمُه كصَبره، وشُكره كَحِلمِه، وهَكذا أرسَله الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ليصِيغَ منظُومَة الأخْلاق الأبَدية بأقْلام من نُور الهدَاية، ثم أسَّس أول مدرسَة لتَواضُع العظَمَاء، وقَف على جُثمَان كبريَاء النَّفس يوَدعه، وغزَا الأفئِدة بتوَاضُعه، وأخَذ مكَانه بين البُسطاء والضُّعفَاء»[١].

كان يخصِف نعله، ويَحلب شَاتَه، ويكون في مهنَة أهْله، ويلبَس الصُّوف، ويركَب الحمَار ويُردف عليه .. ومع هذا فقد ميَّزه الله بكريم الخِلال وشَريف الخصَال، وشَرح صَدرَه، وأعْلى ذِكرَه.

لما سئلت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا عن عمله في بيته قالت: « كان يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه» وقالت في حديث آخر: « كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم»[٢].

ضَم الإلـه اسْـم النَّبي إلـى اسمِه ... إذا قال في الخَمس المؤَذن أشهَدُ
وشَــق لـه مـن اسـمِه لـيُجلَّهُ ... فذو العَرش مَحمُودٌ وهذا محمَّدُ

جمَع في شَخصِه وبين جنبَيه أجَلَّ المقَامَات، وأسمَى المرَاتب، وأكمَل المنَاقِب، فإذا ذُكِرَ العُبَّاد وتهجُّدهم فهو إمامُهم، وإذا أشِير إلى العُلمَاء وفقههم

(١) الزهاد مائة (ص١٤).
(٢) أخرجهما الإمام أحمد في المسند وصححهما الألباني.



فهو أستَاذُهم، وإذا امتُدح الشُّجعان وبسَالتهم فهو قَائدهم، وإذا تميَّز الدُّعاة بأسْلوبهم فهو قُدوتهم، فله في كُل منقبةٍ أوفَر حَظ وأكمَل نَصيْب.

فلقَد سَرَت مسرَى النجُوم هُمومه وَمَضَت مُضي البَاترات عَزائمه

«لم ينطِقْ إلا عن مِيراثِ حكمَةٍ، ولم يتكلَّم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويُسِّرَ بالتوفيق، وهو الكلامُ الذي ألقَى اللّه عليه المحبّةَ، وغشَّاهُ بالقَبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبَيْن حُسنِ الإفهام، وقلّة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقِلّةِ حاجة السامع إلى معاوَدته.

لم تسقط له كلمة، ولا زَلّت به قَدَم، ولا بارَتْ له حجَّة، ولم يَقُم له خَصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذُّ الخُطَبَ الطِّوال بالكلِم القِصار، ولا يَلتمِس إسكاتَ الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتجُّ إلا بالصِّدق.

ثم لم يسمَع الناس بكَلامٍ قَط أعمّ نَفعـًا، ولا أصْدق لفْظًا، ولا أعدَل وزنـًا من كَلامه»[١].

يـا أيُّـهـا الأُمــي حَـسبُـك رُتـبَـةً في العِلم أن دانَـت لـك العُلمَاء

وُلِدَ فلمَّا ظهَر للدُّنيا أضَاء الكَون، واستَبشر التَّاريخ، وسَعِدت البشَرية بمَولده، ورَأت أمه نُوراً خَرَج منها فأضَاء مَدَائن بُصْرى والشَّام[٢]، فللَّه ما أجمَل تلك اللحَظَات، وما أجَل ذلك اليَوم الذي ولدَ فيه

يـومٌ يتيه على الـزَّمـان صَـبَـاحُـه ومـسَــاؤه بـمـحـمَّـدٍ وضَّــــاءُ

كانت لحَظَاتُ حيَاته وأيام ولادَته مِلأها البرَكَات والنفَحَات، فلم تَعرف

(١) البيان والتبيين للجاحظ (١٣/ ٢)

(٢) صححه الحاكم، وقال ابن كثير هذا اسناد جيد قوي «السيرة النبوية» (١/ ٢٢٩).



البشَرية أكمَل خَلْقـاً، ولا أنبَل خُلُقـاً، ولا أكرَم نسَبـاً، ولا أشرَف حسَبـاً، ولا أعظَم برَكةً وصَفَاءً وطهراً وصِدقـاً منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فقد كانَت سيرَته نبرَاسَـاً وضَّاءً في طَريق كُل مؤمن، ونوراً وهَّاجاً في درب كل مسْلم، فقَد نُقلت بأدق تفصِيل وأكمَل بيَان، وأوضَح حَال؛ كما قال أحَد النُّقاد الغَربيين: "إن محَمداً (صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) هو الوحيْد الذي ولد على ضَوء الشَّمس".

وقد شَهد بكمَال أخْلاقه وسُمو روحِه وصِدق لهجَته، القَريب والبَعيد، والموَالي والمعَادي، والموَافق والمخَالف، فدُونك صُورٌ من أقوال بعضِ المستَشرقين الذين ما ملكُوا أنفسَهم أمام تلك العظَمَة التي بهَرتهم إلا أن يسَطروهَا بأقلامهِم: **يقول أديْب أيرلَنْدا برنَارْدشُو:** «ما أحوَجَنا اليوم إلى رجُل كمُحَمَّد يحُل مشَاكل العَالم وهو يحتَسي فنَجانـاً من القَهوة».

ويقول السير موير: «لم يكُن الإصْلاح أعسَر ولا أبعَد منه منَالاً وقت ظهُور محمَّد، ولا نعْلم نجَاحـاً وإصْلاحَـاً تم كالذي تركَه عند وفَاته».

وقال ليونَارد: «إن كان رجُل على هذه الأرض قد عَرَف الله، وإن كان رجُل على هذه الأرض قد أخلَص له، وفَني في خدمَته بقصْدٍ شَريف ودافع عَظيم، فإن هذا الرجُل بلا ريْب هو محمَّد نبي العَرَب».

وفي دائرة المعَارف البريطَانية: «لقَد صَادف محمد النجَاح الذي لم ينل مثْله نبي ولا مصْلح ديني في زَمن من الأزمنَة».

وقال بوزَورث سميث: «إن محَمداً بلا نزَاع هو أعظَم المصْلحين».

فمحَمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو في نظَر المسْلمين خَاتم الأنبياء والرُّسل، ونبي الرحمة والزكاء والنبل، هو في نظَر المفكرين من الملل الأخرَى أعظم



المصْلحين، فلا يحِق لنا أن نتحَدث عن سِيرة رجُل دون أن نشَرف حديثَنا به أولاً"؛ فتنَقل في بسَاتين هذا الكتاب لتَستَنْشِق من عَبيْر مقَامَاتِه، ولتَقطِف من زَهر أخْلاقه وحيَاته، ولتَذوق من مَعِين شمَائله وصفَاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يسَعني إلا أن أرَدد قَول حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ما إن مَدَحْت محمَّداً بمقَالتي — لكن مَدَحت مقَالتي بمحمَّدِ

❁❁❁

ميْلادُ الحَيَاة

مضت الأَيام، وانْصرَمت الأشهُر والليالي فأحَست آمنةُ بنت وهب أن شَيئًا يتَحرك في دَاخلها وكأن مَولوداً يَعيش في أحشائِها، إلا أن آلام الحمل ومواجعَه لم يظهَر منها شيء، ولم يبد منها ما يدلُ على ذلك.

تقول عمته: كنا نسمع أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما حملت به آمنة بنت وهب كانت تقول: ما شعرت أني حملت به، ولا وجدت له ثقلة كما تجد النساء، إلا أني قد أنكرت رفع حيضتي، وربما كانت ترفعني وتعود، وأتاني آت وأنا بين النائم واليقظان فقال: هل شعرت أنك حملت؟ فكأني أقول: ما أدري، فقال: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها، وذلك يوم الأثنين، قالت: فكان ذلك مما يقن عندي الحمل(١).

وعِندها وضعت ذلك الطهر وتلك الشَمائل، بل وُلدت الحياة بأسرِها في أحضَان ذلك الطفل الصَغير، الذي كانت الدُنيا تَنتظرهُ ليُغير مَسارها، ويُنير طَريقها، ويخرج مَن فيها مِن غَياهب الظُلمات إلى مَشاَعِل النُور والهِداية، كُل ذلك بإذن الحَكيم الخبير.

وعِندَما وضعَته وولدته رأت نوراً ساطعاً عظيماً ظَهر مِنها حَتى أنار قصور بُصرى والشَام، كما قال عن نفسه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»(٢).

---

(١) طبقات ابن سعد (٩٨/ ١)، وينظر: شرف المصطفى لأبي سعيد الخركوشي (٣٥٠/ ١)

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند من عدة طرق، وصححه محققوا المسند، ورواه الطبري والحاكم وصححه.



دبّ هذا الطفل الصَغير على الأرضْ، وجَعل يَبحث عن ثَدي يَلتقِمه كَغيره من الصِبية ليسكِن جُوعه ويُذهِب ظمأه .. ولكن تِلك الأُم التي يَملؤها الحَنان، ويُحِيط بها البِشْر، لم يكن فيها ما يسُد رَمقه، وفي هذه الأَثْناء جَاء نِسوة من بني سَعد يلتمِسن الرُّضعاء يرضعنهم ومن بَينهن امرأةٌ تسمى حَليمة، فَلندَع القلم بيدِها لتُسطِّر لنا حِكايتها وقصَتها مع ذلك الغُلام فتقول: «خَرجت من بلدي مع زَوجي وابن لي صغير أرضِعُه مع نِسوة من بني سَعد نلتمس الرضعاء، وذلك في سَنةٍ شهباء لم تُبقِ لنا شيئًا، فخرجت على أَتَان لي قَمراء، معنا شارفٌ[١] لنا والله ما تَبض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمعَ من صبينا الذي معنا من بُكائه من الجوع، ما في ثديي ما يُغنيه، وما في شَارفنا ما يُغذيه، ولكنا كنا نَرجو الغيَث والفَرج، فخرجت على أتاني وقد أدمَت[٢] بالرَّكب حتى شق ذلك عليهم ضعفًا وعجفًا، حتى قَدِمنا مكة، فوالله ما علمتُ منا امرأة إلا عُرِض عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتأباه إذا قِيل لها إنه يتَيم، وذلك أنا إنما كُنا نَرجو المعروف من أبي الصبي، فكُنا نقول: يَتيم! وما عَسى أن تَصنع أمه وجَده؟ فَكُنا نكرهه لذلك.

فما بَقيت امرأةٌ كانت معي إلا أَخَذت رضيعًا غيري، فلما أجمَعنا الانطِلاق قُلت لصَاحبي: والله إني لأكره أن أرجَع من بين صواحِبي ولم آخذ رضيعًا، والله لأذهَبن إلى ذلك اليَتيم فآخذنّه، قال: لا عليك أن تَفعلي، عسى الله أن يَجعل لنا فيه بَركة.

قالت: فذهَبت إليه فأخَذته، فو الله ما هو إلا أن جَعلته في حِجري فأقبل عليه ثَديي بما شَاء من اللبن، فشَرب وشَرب أخوه حتى رويا، وقام زوجي إلى شارفنا من الليل، فإذا بها حَافل، فحلبَ وشَربنا حتى رَوينا، فبتنا شباعًا رواء وقد نام

---

(١) الأتان: أنثى الحمار، والشارف: الناقة المسنة.

(٢) أي: حبستهم وأخرتهم من ضعفها وهزالها.

صِبيانُنا، قال أبوه: والله يا حَليمة ما أراك إلا قد أصَبت نسَمَةً مُباركة، ثم خَرجنا، فوالله لقد خرجَت أتاني أمام الركب قد قَطعتهن حتى ما يتَعلق بها أحد، فقدِمنا مَنازلنا من حَاضرة بني سعد بن بكر، فقدمنا على أَجدب أرض الله، فوالذي نفسي بيده إن كانوا لَيسرحون أغنامهم ويَسرح راعي غنمي، فَتروح غنمي بطانـًا لُبَّنـًا حُفَّلاً، وتَروح أغنامهم جياعـًا، فيقولون لِرعاتهم: ويلكم ألا تَسرحون حيث يَسرح راعي حليمة؟ فَيسرحون في الشِّعب الذي يَسرح فيه راعينا، فتروح أغنامهم جياعـًا ما بها من لَبن، وتروح غنمي لُبَّنـًا حُفَّلاً.

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشِب في يومه شَباب الصبي في الشهر، ويَشب في الشهر شَباب الصبي في سنة، قالت: فقَدمنا على أمه فقلنا لها: ردي علينا ابنَنا فإنا نخَشى عليه وباء مكة، قالت: ونحن أضَن شيء به مما رَأينا من بَركته، قالت: فَرجعنا به فَمكث عِندنا شَهرين، فبينا يَلعب وأخوه جَاءه رَجُلان فشَقا بطنه، فخَرجنا نشتْد فأتينَاه وهو قائم مُنتقِع اللون، فاعتَنقهُ أبوه وأنا، ثم قال: مَالك يا بُني؟ قال: أتاني رجُلان فأضجَعاني ثم شقَّا بطني، فو الله ما أدري ما صنعَا، فرجعنا به، فقال أبوه: يا حَليمة ما أرى هذا الغُلام إلا قد أُصيِب، فانطلقي فلنرُده إلى أهلِه، فَرَجعنا به إليها فقالت: ما ردكما به؟ فقلت: كَفلناه وأدينَا الحق ثم تخَوفنا عليه الأحدَاث، فقالت: والله ما ذاك بكما فأَخبِراني خَبركُما، فما زَالت بنا حتى أخبرناهَا، قالت: فَتخوفتم عليه؟ كلا والله إن لابني هذا شأنـًا، إني حَمَلت به فلم أحْمل حملاً قط كان أخَف مِنه ولا أعظَم بركة، ثم رأيت نوراً كأنه شهَاب خَرج مني حين وَضعته أضاءت لي أعناق الإبل ببُصرى، ثم وضَعته فما وقع كما يَقعُ الصُبيان، وقع واضعـًا يديه بالأرض رافعـًا رأسه إلى السَماء، اترُكاه والحقَا بشأنِكما"[١].

(١) رواه أبو يعلى والطبراني وابن حبان، وقال الذهبي: إسناده جيد. تاريخ الإسلام (٤٦/١)



بأبي هو وأمُي فلَقد كان حمله خيراً ووِلادته نوراً، وصِباه بَركة، وشبابُه أَمانة وصِدقًا، ورِسالتهُ هُدىً ورَحمة، فما من لحظة مِن لحظات حَياته وسِني عمُره إلا وَهي النُّور والخيْر والبَركَة، ثم هو مع ذلك وهو في أحشاء أُمه يموت والده فَيخرُج إلى الحياة يَتيماً، ويَرضع اليتم منذ الولادة، ثم لم يُكمل السَادسة حتى فَقد أمه، ثم يَتبع ذلك جده فيموت وهو في الثَامنة، لَكن الله بلطفه ورعايته حفظه ورعاه

وَإذا العنايةُ لا حَظَتكَ عُيونُها نَـم فَـالـمَـخـاوِفُ كُـلُّـهُـنَّ أَمـانُ

إن اليُتم ليس صِفة نَقص إذا كان الشخص واثقـًا، وليس جَانب ضَعف إذا كانت النَفس سامِقة تواقة، وليس إشارة عجز إذا كان الله بلطفه قد أحاط به، فقد كان كَثير من الأنْبياء أيتام، وكذلك الكثير من الأئِمة والأعلام، كأمثال الشَافعي ومَالك وأحمد؛ فهذا اليُتم لم يَكُن حائِلاً بين رسول الله ﷺ وبين تَطلعَاته وهِمتِه، فها هو ابن الثَمان سنين يأتي إلى جده في الحِجر، وكَانَ يوضع لعبد الْمطلب فرَاش فِي ظلّ الْكَعْبَة، وَكَانَ لَا يجلس عَلَيْهِ أحَد من بنيه إجلالاً لَه، وَكَانَ رَسُول الله ﷺ يَأْتِي حَتَّى يجلس عَلَيْه، فَيذهب أَعْمَامه يؤخرونه فَيَقُول جده: دعوا ابْني، فيمسح على ظَهره وَيَقُول: إِن لابني هَذَا لشأناً[1].

وفي أحَد الأيَام وعندما كَان في صِباه في الرابعة من عُمره أَصاب قُريشـًا جدبٌ وقحطٌ حتى هَزلت مواشيهم وسَغبت بطونهم، فخَرجوا يستَسقون فقال بعضهم: إِعتَمدوا اللات والعزى!، وقال آخرون: اعتمدوا لمناة الثَالثة الأُخرى!، فبينا هُم كذلك إذ أقبَل أبو طالب معه ابن أخيه ذاك الصبي فالتَزم به الكعبة، وألصَق ظَهره بها، ثم أخَذ بأصبعه فأشار به إلى السماء وما فيها قَزعة، فأقبل السَحاب من ها هُنا وهاهُنا وأغدق واغدودَق، وانفجَر له الوادي، وأخصَب النادي والبادي،

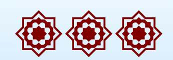
(١) أخرجه ابن إسحاق والبيهقي وأبو نعيم، ينظر: الخصائص الكبرى للسيوطي (١٣٨/ ١)

وفي ذلك يقول أبو طالب:

وأبيضُ يُستَسقى الغمَام بوَجهه   ثُمال اليتَامى عِصمةٌ للأرَامِلِ
يلوذُ به الهُلاَّك من آل هَاشِمٍ   فهم عندَه في نِعمةٍ وفضَائلِ[١]

ولما نَاهز الحلم وبَلغ ثنتي عَشرة سنة خرَج مع عمِّه أبي طالب في تجارة إلى الشَام، فلما بلغ بُصرى ونَزلوا بها، وكان فيها رَاهب من أَعلم النصارى في صَومعة له يُقال له «بُحيرا»، فصَنع بحيرا لهم طعاماً ودَعاهم ولم يكن من عَادته ذلك، فقال له أحدُهم في تَعجُّب: يا بحيرا ما كُنت تَصنع هذا فما شأنك؟ فأخذ بيد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: لأجل هذا سيدِ العَالمين ورسولُ ربِ العالمين! فقالوا له: وما عِلمك بذلك؟ فقال: إنكم حين أقبلتم من العَقبة لم يبقَ شجرة ولا حَجر إلا خَر ساجداً، ولا يسجدون إلا لنبي، وإنا نجده في كتبنا؛ وسأل أبا طالب أن يرده ولا يقدم به الشام فرَده خوفًا عليه من اليهود[٢]؛ فتأمل خَطرهم على الإسلاَم حتى قبل قيَامه وقَبل الرسالة.

ثم شبَّ وكَبر وتَزوج بخديجة، وكان لا يأتي ما يأتيه قَومه من الأصنام وعِبادتها والخمر وشُربها، ثم حَصل شيء غريب وحَادث عجيب وهو «مقام الرسالة».



(١) ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٥٢-٥٣).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة والترمذي، وقد اختلف في صحته، فصححه بعض المتأخرين كالألباني.

﴿ مَقَامُ الرِّسَالَةِ ﴾

في إِحدَى ليالي الصَيف القائضَة شديدة الحَر، حيثُ كانت تُسيطر على فجاج مَكة وسُهولهَا رَمضاء شديدة التوهج والحَرارة، وكان أهل مكة في هذه اللحظَات كلٌّ مُنهمِك في عَمله، كان يومـًا كسابقه من الأيَام بالنسبة لأهل مكة ورجالها، فلا جَديد ولا غريب في هذه الأَثناء، ولكن البَشرية كُلها، والكَون بأَسرِه يتطلع إلى ذلك الجَبل الشَاهق الطَويل، الذي سَينعقد فيه أعَظم لِقاء، وأجَل حَدث، أتدريْ من الآمر بهذا اللِقاء؟ وهل تَعرف تلك الشخصيات التي ستَلتقي فيه؟ وهل تَعلم شيئـًا عن المادة والسبَب الذي عُقِد من أجْله؟ إنها أسئلةٌ كَثيرة تتهَافت إلى الذِهن، وتتَسابق إلى الفؤاد لتبَحث لها عن إجابة في واقع الحِس المُشاهد.

لقد كان الآمر بهذا اللِقاء في ذلك الزمان وفي تلك البُقعة من المكان هو «الله»، وأما شَخصيات اللِقاء فهي بين أَزكى وأشرف رَجل من البشر، وأكرم وأجل مخلوق من الملائكة.

إنه بين روح القُدس جِبريل الوسِيط بين الله ورسله، وأَعظم الملائكة خَلقـًا وأقربهم من الله، وبين محمد بن عبدالله سيد الثقلين وخَير المرسلين وخاتمهم.

كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتحنثـًا في غَار حِراء في جَبل النور المجاور لمكة فأتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال له: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ! فأخَذه فغطه وضَمه ضَمة شديدة ثم قال: اقرأ ثلاثـًا .. ثم قال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾[1]

(١) أخرجه البخاري (٦٥٨١) مسلم (١٦٠).



(سورة العلق، الآيات ١-٥)، فعندَ ذلك خَرج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسرعـًا إلى بيته يَرجف فؤاده، فلقي زوجهُ خديجة فحاورته، ثم انطلَقت به لورقة بن نوفل ابن عَمها فكلمته في ما حَدث لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان شَيخـًا كبيراً قد كتب الإنجيل وعرفه، فأخبرها أن هذا هو النَاموس الذي أُنزل على موسى، وأعلمه أن ذلك علمـًا على نُبوته، وجلّى له ما يحصل لأهل هذه المقامات من البلاء، وأنهم يعادون ويخرجون من دِيارهم، وتحارب هذه الدَعوة وهذه القيم التي يحملون، ثم تمثل وَرقة بعد ذلك بأبيات يخاطب بها خديجة فيقول:

إن يـكُ حَقـًا يا خَديجة فاعلَمي	حَـديثَـك إيـانَـا فـأحـمَـد مُـرسَـلُ
وجبريل يأتيه ومِـيكَـال معهُمَا	من الله وحْي يَشرحُ الصَّدر مُنزلُ
يَـفـوز بـهـا مـن فَـاز فـيهَـا بتوبةٍ	ويَشقَى به العَاني الغَوي المضَللُ
فسُبحان من تهوي الرِّياح بأمرِه	ومـن هو في الأيَّـام ما شَـاء يفعَلُ
ومن عَرشُه فوق السَّماوات كلهَا	وأقـضَـاؤه في خَـلـقِه لا تُـبـدَّلُ

وذَهبت الأيام بعد ذلك اللقاء، فبينما رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم في غَار حراء قد تَحَنث فيه شهراً، فلما قَضى تعبُّده ونَزل من الغار واستَبطن الوادي ونَزل فيه سمِع صوتـًا يُناديه، فالتفت يمنةً ويسرةً فلم يَر شيئـًا! ثم نَظر أَمَامه وخلفه فلم يرَ شيئـًا! ثم رفعَ رأسه إلى السماء فإذا جبريل على عَرش في الهواء، بين الأرض والسماء، فَخاف ورُعب من ذلك الموقف وهَلع من ذلك الجسم العظيم فأتى تَرجِفُ بوادِرهُ إلى بيته فدَخل على زوجه وهو يقول: دَثّروني دَثّروني فغَطوه بِلحَاف وصَبوا عليه ماءً.[١]

(١) أخرجه البخاري (٤٦٤) مسلم (٢٥٧٠).



وفي تلك اللحظة في ذلك الخوف نزل الوَحي السَماوي، والأمر الرباني من الله عَزَّوَجَلَّ بتبَليغ الرِسالة وتحَمُّل أعبَاء الدعوة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ ﴾ (سورة المدثر، الآيات ١-٤) "إنه النِداء العلوي الجَليل، للأمر العظيم الثَقيل، نذارة هذه البَشرية وإيقَاظها، وتخَليصها من الشَر في الدُنيا، ومن النَار في الآخرة، وتوجيههَا إلى الخَلاص قبل فوات الأوان.

إنه واجبٌ ثقيلٌ شاقٌ، حين يُناط بفردٍ من البشر، مهما يكن نبيًا ورسولاً، فالبشرية من التَمرد والعصيان والضَلال والعتو والعِناد من هذا الأمر ما يجَعل من الدَعوة أصعب وأثقل ما يُكلّفَهُ إنسانٌ من المهامِ في هذا الوجود، لاسيمَا وأنها مهمَّةٌ تمتَد إلى قيَام السَّاعة، وتتكَفل بعلاج مشَاكل البشَرية كُلهَا في كل زمَان ومكَان إلى حين زوال الدُّنيا وفنَاء البشَرية.

ربَّاه أي مقَامٍ هذا؟! من يُطيقه؟! ومن يَقدر عَليه؟!

ولكن: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (سورة الأنعام، الآية ١٢٤).

إن كل شيءٍ، وكل قيمةٍ، وكل حقيقةٍ صغيرٌ، والله وحده هو الكبير.

وتتوارَى الأجرام والأحجَام، والقُوى والقيم، والأحدَاث والأحوال، والمعَاني والأشكَال، وتنَمحي وتَزول في ظِلالِ الجلالِ والكمالِ لله الواحد الكبير المتعال.

إنّ هذه الآيات توجيهٌ للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **ليوَاجه نذارة البَشرية،** ومتاعبها وأهوالها وأثقَالها، بهذا التَصور، وبهذا الشعور فيستَصغر كلَّ كَيد، وكل قوة، وكُل عَقبة، وهو يستَشعر أن ربه هو الذي دعاه ليقوم بهذه النذارة".

لقد قام صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **بهذا الأمر خيرَ قيام،** فبدأ بِزوجه فكانت أول من آمن به



وصدَّق، وفي هذا بيان تأثير المرأة في الإسلام، وذلك أن أول من صدق بالرسالة، وتابع وواسى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

ثم عَرض ذلك على أبي بكر فما تَردد ولا تَلكأ، بل سُرعان ما آمن وصدّق وآزر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقام معه يَدعو إلى الله، فما ذَهب على إسلامه بِضعة أيام حتى أَسلم على يديه ستة من العشرة المبشرين بالجنة، ثم أسلَم علي وزيد وبلال، ثم أتى الأمر الإلهي ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (سورة الشعراء، الآية ١٢٤) فقَام - صَلوات الله وسَلامه عَليه - على الصَفا وهتَف بأعلى صوته ليوصِل دعوة الله ورسَالته إلى كُل إنسان، يا صَباحاه! يا صَباحاه! (١)

فتَجمعت حوله قَبائل قريش ورِجالها ونِساؤها، فجعل يناديهم قبيلةً قبيلة، حتى وَصل إلى قبيلته فجعل يُنادي بأسماء أعمَامه ليرى الناس أنه لا محاباة في دين الله وليبين أنه لا يدعى ولا يستغاث ولا يلجأ إلا إلى الله وحده لا شريك له، وأنه لا نبي ولا ولي ولا وثن يصرف له شيء من الدعاء أو العبادة، وإنما هي حق الخالق على خلقه فيقول: يا عباس عم رسول الله، ويا صفية عمة رسول الله، بل هتف باسم ابنته ومهجة فؤاده فقال: يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار لا أُغني عنك من الله شيئًا. (٢)

وفي هذه الأثناء وفي أول مَقام يَقومه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي أول خِطاب يُعلنه

---

(١) قال ابن الأثير: هذه كلمة يقولها المستغيث، وأصلها إذا صاحوا للغارة، لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح، ويسمون يوم الغارة: يوم الصباح، فكأن القائل: يا صباحاه، يقول: قد غشينا العدو، وقيل: إن المتقاتلين كانوا إذا جاء الليل يرجعون عن القتال، فإذا عاد النهار عاودوه، فكأنه يريد بقوله «يا صباحاه»: قد جاء وقت الصباح، فتأهبوا للقتال. النهاية في غريب الحديث (٣/ ٦-٧)

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٥) مسلم (٣٤٨).



على الملأ، وهو يَقوم أمام البَشرية كُلها وهي تتخبط في ظُلمات الشِرك والأصنَام والعِصيان، ليدعُوها إلى تَوحيد العبادة لله، وأنه لا معبود ولا مألوه ولا مُطاع بحقٍّ إلا الله، في هذه اللَحظات الحَرجة التي ينتَظر فيها رسَول الله ردّ الجماهير التي تقف أمامه وتسمع كَلامه، يقوم عَمه وأَقرب النَاس إليه، الذي كَان من فرَحه بولادته أن أعتق أمته عندما بَشرته بمولده، فماذا تَظن موقفه في هذه اللحظات وأمام هذه الكَلمات؟!

قام وهو ينفض الترَاب من يديه ويقول: تبـًا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فكَان لمقَام عَمه صَدمة مُفاجئة، ولكنّ عُمق الإيمان، ورسُوخ المبدأ، وصِدق الهَم الذي كان يحمله جعَلته لا يَعبأ بمثل هذه المواقف التي تعترضه وتقف له في طريق تعبيد الناس لرب العالمين.

ولك أن تتأمل وتَفكر في حَاله بهذا المَقام الذي قَامه على الصَفا، وما حَدث له، وكيف أنه قَام وحيداً بلا أتباعٍ ولا أنصارٍ ولا أعوانٍ، وبحالِه بعد ثلاثٍ وعشرين سنة حِينما قَام في نفس ذلك الموطن وفي ذات البُقعة ولكنه هذه المرة أمام ناظِرَيْه وبين يَديه مائة ألف رَجل كُلهم يلهجون بالتَلبية والوحدَانية لله، وكل فَرد منهم يستنُّ بفعله ويأتم بتصرفاته، فكيف تحَقق ذلك؟ وكيف وَصل إلى هذه الحال؟ وماذا كان بين هذا المقام وذاك المقام من الأحدَاث الجِسام والمَقامات العِظام؟

هذا ما سَنُترجم بعضه في هذه الصَفحات التي صورت شيئـًا من مقاماته، وبَذله، وتَضحِيته، وتَعبُّده، ودَعوته، وشفَاعته، ورَحمَته، وتَربيَته، وشَجاعَته، وعنَاية الله به.



مَضى عَهْدُ النَّوم !

مع أول نداءٍ علوي رَبَّاني ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾ (سورة المدثر، الآية ٢)، قام عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فلم يعرفِ الرَّاحة ولم تعرفه، وحمل هم إبلاغ الأمانة التي تعجز عن حملها الجبال الرواسي، فبدأ بأقاربه ومن حوله، ووطن نفسه على تحمل الأذى، واحتمَال المكاره، «إنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أن يُنشئ من الأمة المُشركة المُتفرقة الجاهلة أمةً واحدةً مؤمنةً عالمةً، فليَصنع كما يصنع البناء: يَضع الحَجر على الحَجر فيكون جِداراً، وكذلك فعل محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بنى أُمّةً صغيرة من ثلاثة، من رَجل وامرأة وصبي، من أبي بكر وخديجة وعلي، فكانت نَواة هذه الأمة الضخمة التي ملأت بعدُ الأرضَ، وكان أسلوبـاً يخلق احتذاؤه بكل مصلح.

ثم صَار المُسلمون عشرة، ثم تموا أربعين، فَخرجوا يُعلِنون الإسلام بمُظاهرة لم تكن عَظيمة بِعددها، ولا بأعلامِها وهِتافها، ولكنها عظيمة بِغايتها ومعنَاها، عَظيمة بأثرِها، عَظيمة بمن مَشى فيها، محمد وأبو بكر وعمر وعلي وحمزة، أربعون لولا كرم الله بإرسال محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعَاشوا ولماتوا منكرين مجهُولين، فلما لامسوه وأخذوا من نُورِه، وسَرت فيهم روح من عَظمتِه صاروا من أعلام البَشر، وأصبحت أسماؤهم مَناراً للسَالكين.

فلما كانوا ثلاثمائة خاضوا المعركة الأولى في الدِفاع عن الحَق، مَعركة بَدر.

فلما بَلغوا عَشرة آلاف فَتحوا مَكة وطهّروا الجزيرة العربية.

فلما بَلغوا مائة ألف فَتحوا الأرض!



نعم فَتحوها، وفَتحوا معها القُلوب بالعَدل، والعُقول بالعِلم، فما عَرفت هذه الدُنيا أنبَل ولا أكرَم، ولا أرأف ولا أرحَم، ولا أرقَى ولا أعلَم منهم"[١].

لقد قامت جاهلية قُريش أمامه وواجَهوه بالسُخرية والأذى، ووقفوا حَجر عَثرة في طريق دعوتِه، وحَذروا الناس مِنه، ووصفوه بأبشَع الأوصاف والألقَاب، حتى كان الرجُل إذا أرادَ الحَج حذَّره قومُه من فتى قُريش أن يسحَره ويغَير قلبه، فهَذا الطُّفيل بن عَمْرو كان من سَادات دَوس وعقَلائهم يقول: لما قَدمت مَكة تلقَّاني رجال قُريش وحَذروني من محمد وقالوا: إن له قَولاً يسحَر به الناس، حتى يفَرق بين الرجُل وولده والمرْأة وزوجهَا، فما زالوا بي يحذرونَني حتى وضَعت في أذُني الكُرسُف - وهو القُطن - لئَلا أسمَع كلامه فيسْحَرني!

لكن الله أراد به الخير، فنظر في نفسه وأنه سيد عاقل فطن فجاء فاستمع لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتابعه وصدقه مباشرة وكان من خُلص أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ[٢].

وهذا أبو لهَب يتبَعه ويلحَقه وهو يدعُوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ ويعْرض نفسَه في الموَاسم وفي أسوَاق مِجنة وعُكاظ وذي المجَاز فيحثو عليه الترَاب ويقول: يا أيها الناس إن هذا قد غَوى فلا يُغوينكم عن آلهة آبائكُم[٣].

وكَانت أم جميْل بنت حَرب بن أمَية تحمِل الشَّوك في طريقه، حتى إذا خَرج تَعثر به وهي حَمالة الحطَب[٤].

(١) سيد رجال التاريخ للطنطاوي (ص٥١).
(٢) ينظر في قصة إسلامه: سيرة ابن هشام، ودلائل النبوة للبيهقي، والخصائص الكبرى للسيوطي.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند.
(٤) ينظر: تفسير الطبري وابن كثير لسورة المسد.



وكان أمية بن خلف يلمزه ويهمزه وهو «**الهُمزة اللُّمزة**»، وبلغ الأمر أن جاء عقبة بن أبي معيط بسلا جزور فألقاه فوقه وهو ساجد.

وكان النضر بن الحَارث كلمَا قام من محله قعَد مكانه وحَدثهم من حديث مُلوك فارس وقال: «حديثي والله أحسَن من حديث محَمد»[١].

فلم تؤثر هذه الأهوَال كلها في عزيمته، ولم تنقص من إيمانه بدعوته، والصدع بها والثبَات عليها، فلما يئسوا من رده عن تبليغ هذه الرسالة عن طريق الأذَى والسخْرية والتهكم والاستهتَار، لجؤوا إلى الوسيلة المقابلَة لثنيه وصده عن دعوته، وهي التي قل أن يثبت أمامها ويصمُد تجاهها أحد، وهي وسيلة الإغراء وشراء المبادئ.

فأرسلوا له عتبة بن ربيعة وهو جَالس عند الكعبة ليفَاوضه، فلما جلس إليه قال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من البسطَة في العشيرة، والمكان في النسَب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جمَاعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتَهم ودينهم، وكفرت من مضى من آبائهم، فاسمَع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبَل بعضَها. فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأدب عالٍ في الحوار وهو يجيبه بكنيته مع أنه عدو له مشرك: «**قل يا أبا الوليْد**»، فقال عتبة: إن كنت إنما تريد بما جئت به مالاً جمعنا لك من أموَالنا، حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفـًا، سَودناك علينا، حتى لا نقطَع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكـًا، ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئيـًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا، حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجُل حتى يداوى منه!

(١) رجال من التاريخ للطنطاوي (ص٢٥)، والقصة في سيرة ابن هشام.



«عجَبًا لقريش! يدعوهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليعطيهم سيادة الأرض وزعَامة الدنيا، ويضَع في أيديهم مفاتيح الكنوز، كُنوز المال وكُنوز العلم، ويمنحهم ما يملك كسرى وقيصر، وهم يدعونه ليعطُوه إمارة هذه القَرية النائمة بين جبَلين وراء رمال الصحرَاء؟!»(١)

فلما فرغ عتبة قال له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد أنصت له حتى انتهى من كلامه: «**أفرَغْت يا أبا الوَلِيْد؟**» فقال: نعم، فقال: «**اسمع**»، ثم قرأ عليه سورة فصِّلت فقام وقد أيس منه.

ولم تنته هذه المحاولات والإغرَاءات والتهديد، بل جاؤوا إلى عمه أبي طالب، وقالوا له: إن ابن أخيك سفَّهَ أحلامنا، وذم آلهتنا، وعاب ديننا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخَلي بيننا وبينه.

فدعَاه أبو طَالب، وأخبَره بما قاله سادة قريش ثم قال له: فأبق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر مالا أطيق، فظنّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه خَاذله ومُسلِمُه، ولكن هذا لم يجعله يتردد في الإجابة أو يتلكأ في الرد عن ثباته على دعوته، وإنما قال في الحال: «**والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار**» فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي قط، ارجعوا راشدين(٢).

---

(١) سيد رجال التاريخ (ص٥٩).

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٥): رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وأبو يعلى باختصار يسير من أوله، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

فلما رأى صناديد قرَيش مناصَرة أبي طالب لرسول الله ﷺ وعدم تسليمه لهم، اجتمعوا واتفقوا على أن يقاطعوا بني هاشم، فلا ينَاكحوهم، ولا يبايعوهم، وحصَروهم في الشعب، فجَلسوا فيه ثلاث سنوات حتى أكلوا فيها ورق الشجر، وكان الصبيَان يتضَاغون في الليل من الجوع ما يجد أحدهم ما يأكل، فلما مضَت السنون الثلاث أتى رسول الله ﷺ إلى عمه أبو طالب فقال: إن الله قد بعَث الأرضَة على الصحيفة التي تعاقدوا فيها فأكَلَت كل ما فيهَا من شركٍ وظلمٍ وأبقَت ما فيها من اسمٍ لله، فانطَلق أبو طالب بعصَابة من بني عبد المطلب إلى المسجِد وهو حَافل من رجَال قريش، فقال لهم: إن ابن أخي أخبرني أن الأرضَة أكلت كل اسم لله في الصحيفة وبقي فيها غدركم وقطيعتكم، والثَّواقب ما كذبني! فإن كان ما قال صحيحَاً فوالله لا نسلمه أبداً حتى نُقتل عن آخرنا، وإن كان باطلاً دفعناه إليكم فصَنعتم فيه ما بدا لكم، فرضوا بذلك؛ فلما فتحوا الصحيفَة وجدوها كما أخبر النبي ﷺ فرفعوا الحصر ومزقوا الصحيفَة[١].

ثم تتابعت الأحزَان على رسول الله ﷺ في ذاك العام الذي أطلق عليه عام الحزن، فتوفي فيه أبو طالب عضُده وساعده وأعظَم الناس مناصرة له، ثم بعده بثلاثة أيام[٢] لحقته أول مؤمنة ومصدقة ومناصرة للرسالة، فتوفيت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فاغتنم ذلك كُفار قريش فصَبوا غضبهم من السخرية والأذى برسول الله ﷺ وبأصحابه، حتى كانوا يخرجون ببلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رمضَاء مكة في شدة وهَج الظهيرة في حمأة القَيض فيجردونه من ثيابه، ويضعون ظَهره على الأرض، ويضعون صخرة على صَدره وهو يهتف ويقول: «أحَدٌ أحَد».

(١) أخرجه البيهقي وأبو نعيم في دلائل النبوة، وينظر: الدرر في اختصار المغازي والسير (ص٥٥)
(٢) ينظر: شرح النووي على مسلم (١/٢١٥)



ويحكي ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حال صهيب وبلال والمقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فيقول: أَخَذهم المُشرِكونَ وأُلبِسوا أدراعَ الحديد، وصهَروهم في الشَّمس، فما منهم أحَدٌ إلَّا وَاتاهم على ما أرادوا إلَّا بلال، فإنَّه هانَت عليه نفسُه في الله، وهان على قومِه فأخَذوه فأعطَوْه الوِلْدان، فجعَلوا يطوفونَ به في شِعابِ مكَّة وهو يقول: أحَدٌ أحَدٌ.[١]

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمر بسُمية وزوجها ياسِر وابنهما عَمار وهم يعذبون فلا يستطيع أن يقدم لهم إلا قول: صَبراً آل ياسر فإن موعدَكم الجنة.[٢]

فلما أيس أبو جَهل من ردهم عن دينهم أخذ الحربة فطَعن بها سمية في فرجهَا فماتت، فحَازت على وسَام **«أول شَهيدَة في الإسْلام»**[٣]، وكل ذلك بمرأى زوجها، ولم يهُد شيئًا من ثباته وإيمانه، ولم ينقص ذرةً من إرادَته وعزيمته.

وفي يوم اجتمَع فيه كفار قريش فذكَروا ما أصابهم من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعيبه لآلهتهم وسَب دينهم، فقام أبو جَهل زعيم القَوم فأعلن أمام الملأ: أنه قاتل محمداً إن صلى ثانية بجوار الكَعبة!

فلما كان الغَد اجتمعت قريش في مجالسهَا ونواديهَا وكان يومًا مشهُوداً وهم ينتظرون تلك اللحَظات الحاسمَة في هذه القضية التي طالما أرقتهم، فدخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المسجد ثم توجه للحجر فاستلمه، ثم أقبل يصَلي، فلما سجَد أقبل أبو جهل بصَخرة عظيمَة في يده فاشرَأَبت أعناق القوم وخَيم

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، وصححه الذهبي في تاريخ الإسلام (٢١٧/ ١).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٨٨)، وصححه، وصححه الألباني في تعليقه على (فقه السيرة).

(٣) ينظر: سير أعلام النبلاء (٤٠٩/ ١).



الصمْت وأطبق على الجميع، وحَانت ساعة الصفر، وأصَاخ الكون، وانتَظر التاريخ نهاية تلك اللحظَة ليسَطرها في سجِل أوراقه، فلما وقف خلف رسول الله ﷺ ومعه صخرته ورفعها وأراد قذفهَا انتفَض منتقعـًا لونه مرعوبـًا قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجَر من يده، فقام إليه كفار قريش يقولون: مالك يا أبا الحكم؟ فقال: قمت إليه فلما دنوت لأقتله عرَض لي دونه فَحل من الإبل، والله ما رأيت مثل هَامته ولا أنيابه لفَحل قط، فهم بي أن يأكلني!! فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**ذاك جبريل لو دَنا لأخَذه**»[1].

ثم تتابع مشْوار الأذى والسُّخرية حتى مشى أُبي بن خلف إلى رسول الله ﷺ بعظم بالٍ قد أرْفت، فقال يا محمد أتزعُم أن الله يبعث هذا بعد ما أرِم؟! ثم فته في يده ثم نفخَه في الريح نحو رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «**أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ثم يدخلك النار!**»، فأنزل الله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾(سورة يس، الآيات ٧٨-٧٩)[2].

وكان أبي بن خَلف هذا صَاحبـًا وصديقـًا حميمـًا لعقبة بن أبي مُعيط، وكان عقبة قد جلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه فعَلم بذلك أُبي فقال له: ألم يبلغني أنك جالست محمدًا وسمعتَ منه؟ وجهي من وجهك حرام أن أكلمك

---

(١) أخرجه ابن إسحاق، والبيهقي وأبو نعيم في دلائل النبوة، وينظر للاستزادة: السيرة النبوية لابن كثير (٤٦٥/١).

(٢) أخرجه ابن إسحاق، وينظر للاستزادة: السيرة النبوية لابن كثير (٥٥/٢)، وصحيح السيرة للألباني (ص٢٠٠).



إن أنت جلستَ إليه أو سمعتَ منه، أو لم تأته فتتفل في وجهه، ففعل قاتله الله، فأنزل الله فيهما: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾[1] (سورة الفرقان، الآيات ٢٧-٢٩).

«ولما انتَهَى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مصَاولة أهل مكة ودعوتهم، فلم يستجيبوا وآذوه أشد الإيذاء، وحارَبوه، وبلغ الأذى غَايته، وقد أوصَدوا أبواب الهداية عن نفوسهم في طَريق الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو حَريص عليهم، وعلى نجاتهم وفَوزهم، فلا القَريب يرحَم، ولا البَعيد يستَجيب، ولا صاحب الرأي يحمله رأيه ليفاوض هذا النبي الأمي.

فماذا يفعَل؟ وهو لا يعرف اليأس والإحبَاط، وهذا شأن الداعيَة الناجح، كلما أغلق باب فإنه يلج إلى باب آخر، وإذا لم يستجب له شخص بحَث عن غيره، وإن أعرضَت عنه قبيلة توجه إلى أخرى، وإن طُرد من قرية انتقل إلى ثانية، فلا يضعف أو يتخَاذل بل يستمر ويواصِل، ولما لم تستجب مكة لهذا النور، ولم تقبل هذه الهداية، ورَدت أمر الله ونداءه، انتقل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الطائف، حيث إنها أقرب القُرى إلى مكة"

يـا طَـريـداً مَـلأ الـدُّنيـا اسمُـه	وغـدَى لحْنًا على كُـل الشِّفَاه
وغَــدَت سِـيـرتـه أنـشُـودة	يـتَـلـقَّـاهَـا رُواة عَــن رُواة
ليتَ شعْري هل درَى من طَارَدوا	عَـابـدوا الـلاتِ وأتـبَـاع مَـنَـاة
هـل درَت مـن طَـارَدتْـه أمَّـة	هُـبـلٌ معـبـودهَـا شَـاهَـت وشَـاه

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة (١/ ٣٦١)



طَــاردت في الــغَــار مــن بــوأهَــا	سُـــؤدداً لا يـبـلُـغُ الـنَّـجـم مَــدَاه
طَــاردَت في الـبِـيـد مـن شَــاد لهَا	ديـــنُـــه جَــاهـــاً أي جَـــاه
سُـــؤدد عَــالـي الــذُّرى مـا شَــاده	قـيـصَـرٌ يـومـاً ولا كِـسْـرى بَـنَـاه

«**ذهب رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وحيداً بلا خدم، ولا حشَم، ولا قافلَة، ولا مرَاكب، ولا موَاكب، ولا رفاق، إلا الواحِد الأحَد**، ذهب يمشي على قدميه الشريفتين، وهذا والله غاية الجهَاد، وغاية البذل والتضحيَة والعطاء للدعوة والمبدأ الحق، ومن حكمة الله جَلَّ وَعَلَا أنه لم يُنزل معه جنوداً من السماء، ولا جَيشاً عرَمرَماً يحميه، ليلقى الأذى بشخصه الكريم، وليكون قُدوةً لكل داعية، وإمَاماً لكل مجاهد، ومثالاً لكل عَالم، فيدعو ويصبر، ويتحَمل ويواصل"[(١)] ويعطي في سبيل الله وطاعته ومرضَاته ورضوَانه ..

فلما وصَل إلى الطائف، ودخل على سَادة ثقيف لينير قلوبهم بعد ظلامها، وليحيي أرواحهم بعدَ موتها، فما حُيي بحفاوة، ولا قُوبِل بتكريم، بل ما إن عرَض عليهم دعوته ورسالته حتى قام أحدهم فقال: أما وجَد الله أحداً يرسله غيرك؟ وقال الآخر في ازدراء وسخرية: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنتَ رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظَم خطراً من أن أرد عليك كلام، ولئن كنت تكْذب على الله، فما ينبغي لي أن أكلمك، وقال الثالث: أنا أسرق ثياب الكَعبة إن كان الله بعثك بشيء قط ![(٢)]

«**فقام** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ولهيْب الحزن في كبده، وحاله تتفَطر لها القلوب، أحزان تثيرها جدران مكة وطرقاتها** .. تُذكره بخديجة وأبي طالِب، ودعوة مطاردة،

(١) سيد رجال التاريخ (ص٦٠).
(٢) أخرجه ابن إسحاق، وينظر: الدرر في اختصار المغازي والسير (ص٢١).



وأتباع تتخَطفهم أيدي طغاة مكة، وقلوب أمامه قاسية لا تحمل معنىً من معَاني الإنسَانية .. فلما أراد الخروج من الطائف، وسلك طريق العودة إلى مكة، لم ينته مسَلسَل الأذى والإهانة بعد، بل أغرَوا صبيانهم وغلمانهم بمطاردته، فصَفوا له صفين ورموه وأذلقُوا عقبيه بالحجارة، حتى خرج من حدود وربوع الطائف"

فيا لله ما أعظَم ذلك الموقف، رسول رب العالمين وخليله، وأشرَف مخلوق وأزكى مرسَل، يسب ويؤذى، ويدمى ويلاحقه الصبيان، فو الذي نفسي بيده: إن القَلم ليعجز عن تسطير ذلك المشهد، وإن اللسَان ليعيى أن يجلي تلك التضحيَة وذلك البذل وذاك الثبَات.

خرج ﷺ كسيراً حزينـًا فما يفيق إلا على أبعد من (٥٠ كيلومتراً تقريبـًا) وذلك في قرن الثعَالب [١].

وفي هذه الأثناء يرسِل الله عَزَّوَجَلَّ ملك الجبَال يستأمر رسول الله ﷺ أن يُطبق عليهم الأخشَبين –وهما الجبَلان المطبقان على مكة– فقال وهو يبعث رسالة إلى أمته أن الدعوة ليسَت عبئـًا ثقيلاً على ظهر الداعي يريد أن يرميه، بل هو همٌّ يخالج النفس، ويخالط القَلب في إخراج الناس من الظلمات إلى النور:

« بَل أستأني بهم لعَل الله أن يُخرج من أصْلابهم من يعبد الله لا يشرك به شَيئـًا»[٢].

«**أمرٌ عجيب!** الرسول ﷺ في هذه الحال من الشدة، وفي هذا الموقف الذي يقنط أجلد الرجَال بسببه، رأى بادرة قبول للدعوة عند عبد ضعيف

---

(١) وقد اختلف في موضع قرن الثعالب على أقوال، فقيل بأنه نفس ميقات السيل الذي هو قرن المنازل، ورجحه القاضي عياض وياقوت الحموي، وقيل: جبل في منى أو عرفة، ورجحه الأزرقي والفاكهي، وقيل غير ذلك. ينظر: تحقيق المطالب بمكان قرن الثعالب د.عمر العمروي.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٥٩) مسلم (١٧٩٥).

يقال له "عدَّاس"، فلم يمنعه كل ما لقي من أن يبلغه دعوة الله، وينصَرف إليه، وينسى ألمه وتعبه، فما زال به حتى أسلم!

هذا موقف صغير بالنسبَة للرسول العظيم، ولكنه عظيمٌ بالنسبة إلى دعَاة البشر في كل تواريخهم، ولا يستطيع باحث أن يلقى في الإخلاص لله في الدعوَة ونسيان الذات في سَبيلها، موقفاً مثله لرجُل آخر غير محمد صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ"

وصل رسول الله صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مكة، فطاف بالكعبة وهو في جوار المطْعم ابن عَدي، وكلما استحكمت الشدة لاح الفرج، وفي آخر ظلام الليل يلوح النور، ومن صدق مع الله فتحت له السبل، ومن توكل عليه كفاه وأغناه، ففي هذه الليالي شرف صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بحال أرفَع، ومنزلة أعظَم، حيث أُسري به إلى المسجد الأقصَى، فأمّ النبيين فيه ثم عُرج به إلى السمَاء، فصعد فوق أطباق السمَاوات حتى بلغ سدرة المنتَهى، وفي تلك الحال رأى جبريلَ –عليه السَّلام– على صورته التي خلقه الله عليها

أسْـرَى بـك الله لـيـلاً إذ مَلائكه ... والرُّسل في المسْجد الأقصَى على قَدمِ

كنتَ الإمَـام لهم والجَمع محتفِل ... أعـظِـم بمثلك مـن هَـادٍ ومُؤتمِ

لما حَـضَـرت بـه التفوا بسَيدهم ... كالشُّهب بالبَدر أو كالجُند بالعَلَمِ

وقـيْـل كـل نَـبـي عـنْـد رُتـبـتِـه ... ويـا محمَّد هـذا الـعَـرش فاستَلمِ

حَتى وصَلـت مكَانـاً لا يُطار له ... على جَناحٍ ولا يُسعَى على قَدمِ

ثم رجع صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من ليلته تلك إلى مكة، فلما أصبح مر به أبو جهل، فسأله عن الجديد من أمره فقال: أُسري بي البَارحة إلى بيت المقْدس، فضحك أبو جَهل وقال: إن أنا دعيت قريشاً تقول لهم ما ذكرت لي؟ فقال:نعم! فدعَاهم فلما



أخبرهم سَخروا وضَحكوا، وارتد قومٌ ممن كان أسلم معه[١]، ثم جعلوا يسألونه عن أشياء في بيت المقدِس، فجلّى له الله بيت المقدس، فجعلوا لا يسألونه عن شيء إلا أخبَرهم به.[٢]

وفي غُضون هذا التعجب والسخرية أتوا أبا بكر صدّيقَ هذه الأمة فقالوا له لعله يرجع عن إيمانه: إنّ صاحبك يزعُم أنه ذهب البارحة لبيت المقدس ورجع من ليلته! فقَال: أَوقَد قال ذلك؟! فَفَرحوا بسُؤاله وظنوا أنها فرصَتهم السَّانحة لرده عن دينه وإسْلامه فأجَابوا: نعَم لقد قال ذلك.

عندها قال في ثبَاتٍ ويقين: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنَّه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ فقال: نعم، إني لأصدقه ما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة[٣].

فبُهتوا وخنسوا، وبهذا استَحق شرف هذا اللقَب الشريف «الصِّدِّيق» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وبدأت إرهاصَات الهجرة بعد ذلك، وسمعَت قريش قائلاً يقول في الليل على أبي قيس:

فإن يُسلم السَّعدَان يُصبِح محمَّدٌ بمَكةَ لا يخشَى خِلاف المُخَالفِ

فلما أصبَحوا قال أبو سفيان: من السَّعدان؟ سعد بن بكر وسعد تميم؟ فلما كان في الليلة الثانية سمعوا الهاتف يقول:

أيا سَعْد سَعْد الأَوس كُن أنتَ ناصِرا ويا سَعْد سَعْد الخَزرَجَين الغَطَارف

---

(١) رواه عبدالرزاق في مصنفه، والحاكم في المستدرك وصححه، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه (٣/ ٦٢)، وصححه الألباني.



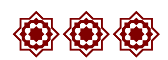
أجيبَا إلـى دَاعـي الـهُـدَى وتمنَّيَا ... على الله في الفِردَوس مُنية عَارفِ

فـإن ثَـوابَ الله للطَّالب الـهُـدَى ... جِنَانٌ من الفِردَوس ذَات رَفَارفِ

فقال أبو سفيان: هما والله سعد بن معاذ، وسَعد بن عبَادة![1]

بعد هذا التقى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأنصار فآمنوا به وصدقوا، فكان لقَاء العقبة الأولى والثانية، وأظهَروا استعدادهم لاستقباله، ووعَدوه بنصرته، فأمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فخرجُوا زرافات ووحدَانـًا، فكان أول من هاجَر أبو سَلمة بن عبد الأسد المخزومي، ثم تتابع بعده الصحَابة – رضوان الله عليهم أجمعين –

وبهَذا ابتَدأت مرحَلةٌ أخرَى ورحْلةٌ مبَاركة . . إنهـا . .



(١) أخرجه البخاري في التاريخ الصغير (١ / ٢٥ – ٢٦)، وينظر: الاستيعاب (٤ / ١٥٥)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٧٩).



﴿ رِحْلَةُ النُّور ﴾

لما كثر عَدَد المسْلمين وازدادت أعدَاد المؤمنين، وقويَت شوكة الإسلام خصُوصًا بعد مبايعة الأنصَار وإسلامهم، أقلق ذلك قريشًا وأقض مضجعَها، كما هو ديدَن أعداء الله في كل زمن، فاجتمَع الكفر وتآمر الشرك لوأد الإسلام، والقضَاء على الرسول الخاتم، فاجتمعوا في دار الندوة من أجل النظَر في كيفية القضاء على رسول الهدى وأتباعه.

وبعد مباحثة رأي السوء بينهم قال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غُلامـًا نهداً جلداً، ثم نعطيه سيفـًا صَارمـًا، فيضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبَائل فلا تدري بنو عبد مناف بعد ذلك ماذا تصنع، فيرضَون بالدية، فاتفقوا على ذلك.

ثم جمعوا أولئك الفتية، وجاء يقودهم أبو جَهل حتى وقفوا على باب رسُول الله ﷺ، وجعلوا يرقبونه وينظرون إليه من ثُقب الباب، وجاء الخطَر على أشد صوره وأشكاله، وتألب أولئك النفر على أكبر جريمة في التاريخ لو تمت، لكن: من كان الله معه لم يضره من كان ضده، ومن حفظه الله فلن تجد عليه سبيلا.

وهنا تتجَلى شجاعة رسول الله ﷺ وثبات أعصَابه، وظهر نصر الله لأوليائه، حين فتح رسول الله ﷺ الباب، وخرج يشق صفوفهم لم يشعروا به، وهو يتلوا قول ربه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1] (سورة يس، الآية ٩).

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٩٠)، والبداية والنهاية (٤/ ٤٤٢).

أدرَكت قريش الحقيقة بعدما مضَى وهاجر مع صاحبه الصِّدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وعم الضجيج مكة وضواحيها، وخرج الكفار فرسَانـًا ومشَاةً يركضون خيولهم ويعدون في كل ناحية يبحثون عنه، ووضعت قريش الجوائز لمن يأتي به وبصاحبه حيين أو ميتين، حتى رصدوا أضخم جائزة لمن أتى بهم وهي مائة من الإبل مقدمة من «**المركَز الشركي لعِداء الرسَالة المحمَّدية**»، فتحركت القبائل، وسار الرجال، وبحث الصغار قبل الكبَار ليحوزوا قصب السبق في هذه الجائزة.

«**ومشى الموكب المحمدي المكون من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأبو بكر إلى الدنيا الواسعَة** .. موكبٌ صغير! لكنه أجَل من أعظم موكب أحست بوطأته هذه الكرة التي نمشي على ظهرها، ولم تعرف موكبـًا أنبَل منه قصداً، وأبعدَ غايةً، وأخلص نية، وأعمَق في الأرض أثراً، موكبٌ صغير يمشى في الصحراء الساكنة، لا رَايات ولا أعلام، ولا أبواق ولا طبُول، ولا تصْفيق ولا تصفير، ولا جنود عن يمين وشمَال.

أشرف الموكب الشريف على المدينة، فأقبلت جموعٌ كالجمُوع التي خلفوها في مكة، ولكن تلك للشر، وهذه للخَير، وكانت هذه نقطَة التحول في التاريخ الإسلامي، كل ما قبلها ظاهره الهزائم، وما بعدها إنما هو نصر إثر نصْر»[(١)].

وها نحن أولاء الآن على أبواب المدينة، وقد خَرج الأنصار يستقبلون محمداً صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولو استَطاعوا من الحب لفرشوا له الطريق بقطَع أكبادهم حتى يمشي عليها.

---

(١) سيد رجال التاريخ (ص٦٢).



أقْبِل فَتلك ديَارُ طَيبَةَ تُقبِل تُهدِيك من أشْوَاقهَا مَا تَحملُ
القَومُ مُذ فَارقتَ مَكةَ أعْينٌ تأبَى الكَرَى وجَوانحٌ تتَملْمَلُ

ولما دخلا المدينة طفق الناس يسألون: أيهم رسُول الله؟ لا يعرفونه، لأنه لم يكن يتميز عن غيره بلباس أو هيئة، بل كان يلبس ما يلبَس الناس، ويأكل ما يأكلون.

ولقد كان في أصحابه الأغنيَاء الموسِرون، ولكنه أحب أن يعيش بسيطًا، وأن يموت عزيزاً

لبسَ المرَقَّع وهُو قائِدُ أمَّةٍ جَبَت الكُنُوزَ وحَصَّلتْ أغْلالهَا

«لقَد مشى محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ من الغار إلى مَكة، ثم مشَى من مكة إلى المدينة، ثم مشَى أصحابه وأتباعه يحمِلون العدل والعلم والإنسَانية إلى الشَّام، ومشوا إلى العراق، ومشَوا إلى مصر، وبلغوا أقصَى المشْرق وأقصَى المغرب، ونصبوا راية الإسلام على روابي الصين، وعلى بطَاح فرنسَا، ومشوا شمالاً وجنوبًا حتى ملؤوا الأرض رجالاً وعدلاً ونوراً وفضائل وأمجَاداً، وكانوا خلاصَة البشر، فأحنوا الرؤوس لذلك الرجُل الذي دخل المدينة لا يحُف به موكب، ولا يحرُسه جند، ولا تلوح فوق رأسه راية، ولا يلمع على هامته تاج، ولا يقرع عند رأسه طبل، ولكن تحف به الملائكة، وترفرف فوقه رايات الإيمان والقرآن، ويلمَع على جبينه نور النبوة، ويحرسُه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ»(١).

دخل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ المدينة فصار النسَاء والصبيان يركضون ويهتفون: الله أكبر الله أكبر، جاء محمد جاء رسول الله، وثار بنو النجار إليه وأتوه وهم متقلدوا

(١) سيد رجال التاريخ (ص٨٢).



أسلحتهم، فجعل لا يمر بحي من أحياء الأنصَار إلا قالوا: هلم يا رسول الله إلى العَدد و العدة، والعزة والمنعَة، فيقول: دعوها - يقصد ناقته - فإنها مأمُورة، فلما مر ببني النجار خرج فتيات صغيرات ينشدن واصفَات حبهن ومحبة جوار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم فيقلن:

نَحْنُ جَوارٍ من بَني النَجَّار ... يَا حَبَّذَا مُحَمَّدٌ من جَارِ

فوقف عندهن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال في تواضُع وحنو: الله يعلَم إني لأُحبكن[1] ثم مشت به ناقته حتى بركت به في مكان مسجده، فأتى أبو أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخذ متَاع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحمله إلى بيته، فكان أول عملٍ عمله هو بناء مسْجده وغرف أزواجه، راسمـًا في أذهان أصحابه عِظَم العبادة في الإسْلام، مؤكداً على أن مشاعل الهداية تنطلق من بيوت الله، «لا جرم إن كان للمسجد رسالة اجتماعية وروحية عظيمة الشأن في حياة المسلمين، ففيه تُوحد الصفوف، وتُهذب النفوس، وتُوقظ القلوب والعقول، وتُحل المشاكل، وتظهر فيه قوة المسلمين وتماسكهم، ولقد أثبت تاريخ المساجد في الإسلام أنّه انطلقت منه جحافل الجيوش الإسلامية لعمارة الأرض بهداية الله، ومنه انبعثت أشعة النور والهداية للمسلمين وغيرهم، وفيه ترعرعت بذور الحضارة الإسلامية ونمت، وهل كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد وسعد وأبو عبيدة، وأمثالهم من عظماء التاريخ الإسلامي إلا تلامذة المدرسَة المحمدية التي كان مقَرها المسجِد النبوي؟

(١) أخرجه ابن ماجه، واختلف في صحته، وصححه من المتأخرين الألباني.



وميزة أخرى للمسْجد في الإسلام أنه تنبعث منه في كل أسْبوع كلمة الحق مدوية مجلجِلة على لسَان خطيبه، في إنكار منكر، أو أمر بمعروف، أو دعوة إلى خير، أو إيقاظ من غفلة، ويوم يعتلي منَابرها ويؤم محاريبها دعَاة أشداء في الحق، علمَاء بالشريعة، مخلصُون لله ورسوله، ناصحون لأئمة المسلمين وعامتهم، يعود للمسجد في مجتمعنا الإسلامي مكان الصدارة، ويعود ليعمل عمله في تربية الرجال، وإخراج الأبطال، وإصلاح الفساد، ومحاربة المنكر، وبناء المجتمع على أساس من تقوى الله ورضوانه، وذاك عندما تحتل هذه الطليعَة الطاهرة من شبابنا المؤمن العالمة بدين الله، المتَخَلقة بأخلاق رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منابره وأرجَاءه»[١].

بدأ العَمل بعمَارة المسجد والحُجُرات وكان الصحَابة كاليَد الواحدة، وكالساعد للمرفق يشده ويؤازره، وكان في مقَدمة العاملين في هذا البناء هو محمد – صَلوات الله وسَلامه عَليه – وهو يرتجز:

اللهُم لا خَير إلا خَير الآخِرة ... فَاغفِر للأنصَار والمهَاجِرَة

والصحابة يعملون ويرتجزون فيقولون:

لئن قَعَدْنا والنَّبي يعمَل ... لَذَاك منَّا العَمَل المضَللُ[٢]



(١) السيرة النبوية لمصطفى السباعي (ص٨٥).

(٢) أخرج الخبر والبيت الأول: البخاري (٦٠٥١)، ومسلم (١٨٠٤)، والبيت الثاني عند ابن هشام في السيرة.

العِنَايَةُ الإلَهِيَّة

في لحظات عصيبة، وسَاعَات حَزينة، وزَفَرات من الآهات والتوجعَات تركتها وخلفتها معرَكة بدْر الكُبرى، التي سحق فيها معسكر الإيمان وكتَائب الرحمَن غطرَسة وكبرياء قريش، فلا تسَل ولا تحدث عن مدى أثر تلك الصدمة والفجيعة في قلوبهم، وفي لحظَات الأنين وحر نار المصيبة، اجتمع اثنان من سَادات قريش تحت ميزاب الكعبة، في هدوء وسكون الليل الذي تطيب فيه نفثَات التشَكي، ويُلقى فيه فيض الهم والألم، كانا يتذاكران ويتحَدثان فيما أصيبوا به من فقد أشرَافهم، ومقتل ساداتهم، وكَسر شَوكتهم، فقال عُمير بن وَهب وكان من شجعان قريش: والله لولا ديْنٌ علي ليس له عندي قضاء، وعيَال أخشى عليهم الضيعة، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فقال صَفوان بن أميَّة -وكان قد قُتِلَ أبوه وأخوه في معركة بدر-: عليّ ديْنك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء وأعجَز عنهم، ففرح عمير واستبشَر وقال لصَفوان: فاكتُم عني شأني وشأنك.

ثم انطلق عُمير لبيته وأخذ سيفه وشحذه سمـًا حتى يبلغ أثره، ويتمكن بثقة من القتل، وركب ناقتَه مُسرعـًا متعَجلاً إلى المدينة يريد أمراً ويريد الله غيره، فلما دخَل المدينة أتى مسجد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فأناخ ناقته عند بابه، وكان لعمير ابنٌ قد أُسِر في بدر، فكان يتذرع أنه جاء لفك أسره، فلما أناخ رآه عمَر بن الخطاب فاروق الأمة، وكان في جمَاعة من الصحَابة يتحدثون عن كرَامة الله لهم في بدر، فقَام مسرعـًا إليه - ووهَج الفراسة يشتَعل في عينيه-، فدخل إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقَال: يا رسول الله هذا عدو الله عمير قد جَاء متوشحـًا سيفه،



فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أدخله عليّ.

فأقبل إلى عمير فلبّبه بحُمالة سيفه فأدخله، وقال لفتية من الأنصَار: ادخلوا عند رسول الله واحذروا عليه من هذا الخبيث.

وفي هذه الأثناء كان صَفوان بن أمية يقول لأهل مكة: أبشِروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيْكم وقعة بدر، وكان يخرج كل يوم يتلقى الركبَان ويسألهم عما استجَد من الأخبار، فلما دخل عمير على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أنعموا صَباحـًا. فقال النبي – صَلوات الله وسَلامه عَليه–: «**قد أكرمَنَا الله بتَحية خير من تحيتك يا عُمير، بالسَّلام تحية أهْل الجنة**». **ثم قال:** «**ما جَاء بك يا عمير؟!**» فقال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: «**فما بال السيف في عنُقك؟**» فقال عمير: قبّحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شَيئـًا يوم بدر؟ فقال: «**اصدُقني ما الذي جئت له؟**» قال: ما جئت إلا لذلك.

فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: بل قعدت أنت وصَفوان بن أمية في الحِجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا ديْنٌ عليّ وعيَال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحَمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني، والله حَائل بينك وبين ذلك.

فقال عمير: أشهَد أنك رسُول الله، قد كنا نكذبك يا رسول الله بما كنت تأتينا من خَبر السمَاء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصَفوان! فو الله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحَمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا السيَاق ثم تشهد شهادة الحق. فقال النبي الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فقهوا أخَاكم في**

دينه، وأقرئوه القُرآن، وأطلقوا له أسِيره»[١].

فعَاد هذا الغيظ وذلك الحنق والغضَب، رحمةً وأمنًا وسلامًا، ورجع ذلك العدو داعيًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ محملاً بالبشر والنور والقرآن، فلما علم صفوان أقسَم بالله لا يكلمه ولا ينفعه بنفع أبداً.

فلما وصَل عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ، فأسلَم على يده بشَر كثير.

وإذا العِنَاية لاحَظَتك عُيونها ... نَم فَالحوَادث كُلهُن أمَانُ



وفي مَعركَة أحُد، أتى عبد الله بن شهَاب الزهري وكان من فرسَان قريش فجعل يصُول ويجُول وهو يقول: دلوني على مُحمَّد، فلا نجوت إن نجا، ورسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلى جَانبه، ما معه أحَد، ثم جاوزه ولم يعلم به ولم يره، فعاتبه في ذلك صفوان وهو يرى أنها فرصَة نادرة، فسيفٌ صارمٌ، وفارسٌ شجاعٌ، ومحمد خالٍ ليس معه أحد، فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله إنه منا ممنوع، خرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك[٢].

ومن يكُن الإلَه لَه حَفيْظًا ... فَحَاشَا أن يُضَيِّعهُ الإلَه

ونعيش في هذا الحدث مع ألمع أناس سطروا أقبح الأمثلة وأبرز الوسَائل في الخيانة والغَدر، فتاريخهم حَافل بخياناتهم وغَدرهم، وكذبهم وبهتانهم، فهم أعلام هذا الميدان، فلا مسَابق ولا مجاري لهم في ذلك، ولعلهم سبقوا إلى

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٥٨) مرسلًا، وقال الهيثمي: إسناده جيد، وينظر: السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤٨٨). سيرة ابن هشام ت السقا (٢/ ٨٢)

(٢) أخرجه ابن هشام في السيرة (٢/ ٨٢)، وينظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٤١٣).



الذهن فلا أسبق منهم في هذا المجال.

وبدايَة القصة أن عَمرو بن أمية الضَّمْري وكان صَحَابيًا عدّاءً لا يُسبق، خرج من المدينة فلقي رجلين نائمين فقَتلهما، وظنهما مشركين ولم يعلم بإسلامهم، فجعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجمع المال لديتهمَا، فأتى إلى يهود بني النَّضير ليعينوه في الدية وكان ذلك من بنود المعَاهدة التي عاهدهم عليها، فلما دخَل عليهم وجلس معهم فأخبرهم لما أتى إليه فأبدوا اسْتعدادهم وتهيؤهم وقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ها هنا حتى نقضي حاجتك. فجلس إلى جنب دار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعَدوا، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وخَلا اليهود بعضُهم إلى بعض، وسَول لهم الشيطَان الشقَاء الذي كتب لهم، فتآمَروا على قتله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحَى، فيصعد فيلقيها على رأسه فيشدَخه بها؟ فقال أشقاهم وهو عَمْرو بن جِحَاش: أنا. فقال أحد عقلائهم وهو سلَّام بن مِشْكم: لا تفعلوا فوالله ليُخبَرنَّ بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه، ولكن إبليس جثَم على قلوبهم فأبوا إلا إمضَاء خطتهم، وقربت سَاعة التنفيذ، وأخذ عمرو الرحى، وتأهب ليقوم بأداء دوره ومهمته، ووجَم اليهود انتظاراً لما سيحدث، وترقبًا لما ستنتهي عليه هذه الخطة الماكرَة .. وفي هذه اللحظة الفاصِلة نزل رُوح القدس عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبره بما همّ به القوم من الغدر، فنهض مسرعًا وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحَابه وقد فجَأهم قيامه وذهابه، فقالوا: نهضتَ ولم نشعر! فأخبرهم بما همت به اليهود.

ثم قدم عليهم بجُند الله في جيش تحفُّه الملائكة، ويحيط به الأبرَار، ويؤيده الله، فزلزلت حصونهم هيبةً ورعباً حتى نزلوا على أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأجلاهم من المدينة[1].

كَـأنــه وهـــو فَــــرد في جَـلالَـتِـه	في مَـوكِـب حين تلقَاه وفي حَشَمِ
عِـنَـايـة الله أغـنَـت عـن مُضَاعَفَة	من الـدرُوْع وعَـن عَـال من الأُطُـم

وهذا شَيْبة بن عُثْمان بن أبي طَلحة يقول: ما كان أحد أبغض إليّ من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكيف لا يكون كذلك وقد قتل منا ثمانية كل منهم يحمل اللِّواء، فلما فتح الله مكة أيست مما كنت أتمناه من قتله، وقلت في نفسي: قد دخَلت العَرَب في دينه فمتى أدرك ثأْري منه؟!

ثم قلت: أسير مع قريش إلى هوازن بحنين، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة فأثأر منه، فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها. وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمدا ما تبعته، فكنت مرصدا لما خرجت له، لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة، فلما اختلط الناس اقتحم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن بغلته، وأصلت السيف فدنوت أريد ما أريد منه، ورفعت سيفي حتى كدت أسوده، فرفع لي شواظ من نار كالبرق كاد يمحشني، فوضعت يدي على بصري خوفا عليه، والتفت إلي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنادى: «**يا شيب، ادن مني**». فدنوت فمسح صدري ثم قال: «**اللهم أعذه من الشيطان**». قال: فوالله لهو كان ساعتئذ أحب إلي من سمعي وبصري ونفسي، وأذهب الله ما كان بي.

ثم قال: «**ادن فقاتل**» فتقدمت أمامه أضرب بسيفي، الله يعلم أني أحب أن

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢/ ٤٤)



أقيه بنفسي كل شيء، ولو لقيت تلك الساعة أبي لو كان حيـًا لأوقعت به السيف، فجعلت ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون فكروا كرة رجل واحد، وقربت بغلة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاستوى عليها، فخرج في أثرهم حتى تفرقوا في كل وجه، ورجع إلى معسكره فدخل خباءه، فدخلت عليه، ما دخل عليه غيري، حبـًا لرؤية وجهه وسروراً به، فقال: «**يا شيب، الذي أراد بك الله خير مما أردت بنفسك**».

ثم حدثني بكل ما أضمرت في نفسي مما لم أكن أذكره لأحد قط. قال: فقلت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قلت: استغفر لي يا رسول الله، فقال: «**غفر الله لك**»[1].

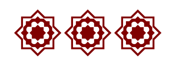
وفي غَزْوة تَبُوك كان الجيش الإسْلامي يسير في شدَّة حرارة الجَو، وفي جَهْد ومشَقَّة وجُوع، حتى كانوا يستظلون بأيديهم من حَرارة الشَّمس، وكانوا إذا نزلوا واديـًا تركوا الشجرة العظْمى لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليسْتَظل بها، ولو استطاعوا أن يحجُبوا أشعَّة الشَّمس عنه بأيديهم لحجبوها، فأتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت ظل شجرة لتقيه حر الظَّهيرة والقَائلة، فنزع ثوبَه وبقي في إزار ورِدَاء، وعلَّق السَّيف عنْد رأسه ونام، فجاء رجل مشرك فظٌّ غليظ يتربَّص الدَّوائر برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاغتنم هذا الموقِف، فرسول الله نائم، وليس عنده أحَد من أصحَابه، وسيفُه معلَّق، فاخْتَرط تلك اللحظة وبخفَّة سيفه وأيقظ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما فتح عينيه وإذا بلمعان السَّيف يكاد يخطِف بصَره، فقال: من يمنعك مني يا محمَّد؟ فقال وهو سيد المتَوكلين: «**الله**» فاهتَز الأعرابي وانتفَض وسقط السَّيف

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢٥٧)، وبنحوه البيهقي في الدلائل وذكر أن له شاهدا.



منه، ثم أخذه عليه صلوات الله وسلامه فقال: «**من يمنعك مني؟**» فقال: كن خير آخذ يا محمَّد، فعفا عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.[1]

يا مادحًا تبَّعًا أو سيف ذي يزن	**دعهم وخل بني شَدَّاد في إرم**
دعْ عنك كسْرى ومن حازوا جوائزَه	**وكل أصْيد أو ما قيل في هَرم**
واكتُب على مفرِق التَّاريخ رائعة	**من القَريضِ فدتك النَّفس من قدم**
وامدَح بها أحمَد في كل قافيَة	**واملأ بها في قَوافي الشِّعْر من حِكم**



(١) ينظر: الثقات لابن حبان (١/ ٢١٧)، وأسد الغابة (٢/ ٢٠٠).



﴿ مَقَامُ التَّربيَة ﴾

قبل أن تتصفح هذا المقَام، وقبل أن تبحر في كلمَاته ومقاصِده، أجِل فكرك واسبَح بخاطِرك، واسترجع ذكرياتِك وذاكرتك وحياتك، ثم استخرج من ذلك الكم الهائل، والعَدد الضَّخم من البشر الذين جمعتك بهم موافقات الحياة وأيام الدُّنيا، ثم عليك بعد هذا أن تصَفي تلك الوجوه وتنتقي منها أبرز شَخص ورجُل جمعك به لقَاء في هذه الحياة، وعش لحظَات في سر إعجابك به في أخلاقه وسُمُو روحه، وفي عذوبة منطقه، فلن تجد من خلال تلك الأعداد التي استخلصْت منها ذلك الرجل مع كثرتها ووفرتها رجلاً جمع خصَال الحمْد، ومزايا الخُلُق، وعذوبة المنطق، وفصَاحة اللسَان، ولين الجانب، وبسَاطة التواضُع، وسمُو الرُّوح، ونبل الغَاية، وإخلاص العمَل، كما اجتمعت لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هو أمَّـة الأخْـلاق شيدت فيه من ... كَـــرَم ولُـــطْـــفٍ لـــلإلَـــه حـبَـاه

ولن تَجد في تلك المحَاضِن والمدارس منهَج تعَلم، وخطَّة عمَل، وجَلالَة هدَف، وصدْق انتمَاء، كما كان في المدرسَة المحمَّدية التي خرَّجت الأبْطال الفاتحين، والقَادة الميَامين، والدعاة المخْلصِين، والأسخيَاء الباذلين، والأعْلام الصَّادقين، فقد كانت بحقٍّ تصفية روح، وتهذيب خُلق، وتربية نفْس، وتنمية مهَارة في كل ما يخدم هذا الدين ويرضي رب العالمين.

وإذا علمت بأن المعلِّم هو محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمسَاعد هو أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصاحب الخزينة بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكامن السر حُذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والدَّاعم عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والفِدائي علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والتلاميذ سعْد وطلْحة ومصْعب والزُّبير وأُسَيد وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والمكان والمدرسة في مسجِد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لقد بنيت على تقوى من الله ورضْوان، فلو اجتمعت جامعَات الدنيا وأسَاتذة العصر وعباقرة العالم، على أن يخرّجُوا مثل تلك القيَم، وتلكم المبادئ، وذلك السُّمو، لما استطاعوا أن يقاربوه أو يُدانوه لا أن يصلوا إليه، وتأمل كيف أخرج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من رعاة الغَنم قادةً للأمم، ومن عبدة الأوثان وسدَنة الأصنام دُعاةً للإسلام، ومشاعل للإيمان، حتى تربعوا على قصور كسْرى وقيصَر، وهيمنوا على ملكهم.

ولتعرف شيئًا من نسِيم تلك التربية، وتشم شيئًا من عبيرها مُدَّ بصرك في بعض رياض تلك المثل، وانظر إلى الميْزان والمعيار الذي كان يربيهم عليه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في معرفة الرجال وقدرهم.

ففي أحَد الأيام كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسًا وعنده رجل من أصحابه فمر بهم رجُل يلوح عليه شارة الغنى، وعلامة الثراء، قد لبس من أجمل الثياب، فسأل رسولُ الله الرجلَ الذي بجانبه فقال: «**ما تقُول في هذا الرَّجل؟**» - يقصد الرجل الثري - فقال: يا رسول الله هذا رجل من أشراف الناس حري إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يُشفّع، وإن قال أن يُسمع، فسكت عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وجلس قليلاً فمر رجل آخر، رثُّ الحال، متواضع الهيئة، قد ظهرت عليه آثار الفقْر وقلة ذات اليد، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للرجل الذي سأله قبل قليل: «**ما تقول في هذا الرَّجل؟**» فقال: يا رسول الله هذا رجل من أوسَاط الناس، حَري إن خطب ألا يُنكح، وإن قال ألا يُسمع لقوله، وإن شفع ألا يُشفّع، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو يرسم ميزان الرجَال ومقياسهم في الإسلام - لمعرفته بإيمان هذا الرجل: «**هذا خَير من ملئ الأرض من مثْل هذا!**»[1] هكذا هو معيار الإسلام فلا مظَاهر،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٠٣).



ولا أشكال، وإنما هو نظر لما يقوم في القلب من تعظيم الله وحرماته، وما تصدقه الجوارِح بعد ذلك.

وفي إحْدى رحلات النبي ﷺ مع أصحابه مرّوا على شجر أراك فقام عبدالله بن مسعود يجتني سواكا من الأراك، فجعلت الريح تكفؤ ثوبه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: «**مم تضحكون؟**» قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه، فقال: «**والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أحد**»[(١)]

فكم من رجل جميل الشكل، حسن الجسم، ولكنه مقطوع الصلة بربه سبحانه، سيء الخُلق مع الخَلق، فهذا ليس له في الآخرة من خَلاق، كما في الصحيح: «**يؤتى بالرجل العظيم السَّمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جنَاح بعوضَة**»[(٢)]

ومابنفع الفتْيان حُسْن وجوههم إذا كانَت الأخْـلاق غَير حسَان

وفي موقف ومقام آخَر يبين رسول الله ﷺ الغاية والهدف من هذا الوجوْد، ويربطهم بالآخرة حين تغريهم زهْرة الحياة الدُّنيا.

أهدي لرسول الله ﷺ حلة من حرير، فأخذها بعضُ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وجعلوا يقلبونها ويعجبون من لينها ونعومتهَا، وكانت غايةً في الحسْن والجمَال والنعومة، فنظر إليهم المربي في تلك الحال فقال: «**أتعجبون من ليْن هذه؟ لمنَاديل سعد في الجنَّة خير منها وألين**»[(٣)]

فزهدت فيها نفوسهم، وارتفَعت هممهم، وسمَت أهدافهم، وهم يرون أن

---

(١) أخرجه أحمد (٧/ ٩٩)، وصححه ابن جرير الطبري في مسند علي (رقم ١٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٥٢) مسلم (٢٧٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٧٦)، ومسلم (٢٤٦٨)



مناديل سعد فقط ألين من هذا الحرير، فكيف يكون لبَاسه! وكيف سريره وفراشه!

ولم يعرف اليأس إليه طريقًا عند الشدائد، ولا عرف التنَازل عن مبَادئه، بل كانت الشِّدة تزيده عزمًا ومضيًا وتفاؤلاً، وكان يبعث هذه الروح في أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ويربيهم عليها، فعن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنت عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاءه رجُلان أحَدهما يشكو العَيلة، والآخَر يشكو قَطع السَّبيل، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما قَطع السَّبيل: فإنه لا يأتي عَليك إلا قليل، حتى تخرج العِير إلى مكة بغَير خفِير، وأما العَيلة: فإن السَّاعة لا تقوم، حتى يطوف أحدكم بصدقته، لا يجد من يقبَلها منه**»(١).

وفي إحدى المحن الكبرى التي حوصرت فيها المدينة وطوقت بلفيف المشركين، تعرض صَخرة في مكان من الخَندق، لا تأخذ فيها المعَاول، فشكوها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاء فوضع ثَوبه ثم هبَط إلى الصَّخرة، فأخذ المِعول فقال: «**بسم الله**» فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر، وقال: «**الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا**». ثم قال: «**بسم الله**» وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر فقال: «**الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن، وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا**» ثم قال: «**بسم الله**» وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر فقال: «**الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا**»(٢). فما أسمى هذا التفاؤل الفذ في أحرج الأوقات وأصعبها.

---

(١) أخرجه البخاري (٢ / ١٠٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣٠ / ٦٢٦)، وحسنه ابن حجر، وضعفه ابن كثير بميمون أبو عبدالله، وهو الأظهر فالأكثر على تضعيفه، وجاء من طرق فيها ضعف، لكن ضرب الصخرة ثابت في الصحيح. ينظر: فتح الباري (٧/ ٣٩٧)، البداية والنهاية (٤/ ١٠٢).



وإن أردت أن ترى موقفًا أعْمَق وأكمَل، ومقامًا أسمَى وأجمل، فعِشْ في أكنَاف هذا اللقاء الذي تخرس أمام فصَاحته مصاقع الخطَباء، وتشْدَه أمام أدبه ولطْفه أبصار المربين والمعلميْن، ذاك أنه لما انتهت غزْوة حنين وأظفَر الله فيها المسلمين بهوازن بعد ما كانت الصَّولة في بادئ الأمر لعدوهم، وكان الجيش قد فر أكثره وثبت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في قلَّة من أصحابه، فأمر العبَّاس وكان جهوري الصوت فنادى أصْحاب بيعة الرضْوان فأسرعوا إليه كما تسرع الأمهات إلى أولادها، ثم خص الأنصار بالدعاء، فأقبلوا ملبين النداء فأبلوا بلاءً حسنًا، فلما انتهت المعركَة وجُمِعت الغنائم فإذا أودية الإبل، وإذا الشعاب قد غصَّت بالغنم والشاء، فأعطى أبا سفيان وعيينة والأقرع وسهيل بن عمرو في آخرين كل واحد مائة ناقة[1]، فاجتمع عليه العرب وكل يقول: أعطني يا محمد، حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه فوقف عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وقال: «**أعطوني ردائي، فلو كان لي عَدد هذه العِضاه نعَمًا لقسَمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوبًا ولا جبانًا**» فللَّه ما أسمى هذا الكرم وهذا السخاء.

وفي هذه اللَّحظات ورسول الله يقسم الغنائم، ويعطي مسلمة قريش الجدد وسادة القَبائل مئَات الإبل، على مرأى الأنصَار الذين وجه لهم النداء قبل قليل في المعركة، والذين آووه ونصَروه وآزروه فلم يعطهم شيئًا، فوجدوا ذلك في أنفسهم حتى قال قائلهم: لقيَ والله رسول الله قومه!

فدخل عليه سعد بن عبادة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ فأخبره فقال: اجمع لي هذا الحَي من الأنصار في الحظيْرة، فجمعهم ثم دعا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فأتى فدخل عليهم،

(١) أخرجه الإمام أحمد، وقال ابن كثير: على شرط مسلم. السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٦٧٧)



فحَمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**يا معْشَر الأنصَار، ما مقَالة بلغَتني عنكم، وجِدة وجدتموها علي في أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً فهَداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟**» قالوا: بلى الله ورسُوله أمَن وأفضَل. ثم قال: «**ألا تجيبوني يا معشر الأنصَار؟**» فقالوا: بماذا نجيبُك يا رسُول الله؟ فقال: «**أما والله لو شئتُم لقلْتم فلصَدَقتم، أتيتنا مكذَّبًا فصدَّقناك، ومخذولاً فنصَرناك، وطَريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصَار في أنفسكم في لعَاعَة من الدُّنيا، تألفتُ بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامِكم؟ ألا ترضَون يا معشر الأنصَار أن يذهب النَّاس بالشَّاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحَالكم؟ فوالذي نفس محمَّد بيده، لولا الهجرة لكنت امْرَءاً من الأنصَار، ولو سَلَك النَّاس شعبًا وسَلَكت الأنصَار شعبًا لسَلَكت شعب الأنصَار، اللهم ارحم الأنصَار، وأبناء الأنصَار، وأبناء أبنَاء الأنصَار، الأنصَار شعَار والناس دثَار، سوف تلقون أثَرة بعدي فاصْبروا حتى تلقَوني على الحَوض**» فبكى القَوم حتى أخضَلوا لحَاهم، وقالوا: رضينا برسُول الله قسَمًا وحَظًا.[1]

في هذا المقَام تظهَر روعَة الأخْلاق، وسُمو الرُّوح، وعظَمة هذا النبي ﷺ، فهل سمعت بأرَق من هذا العِتَاب؟ أو قَرَأت ألطف من هذا الخطَاب؟ وكيف كان يربيهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على رسُوخ الإيمان، والصدْق في الغَاية، والاعتراف بالفضل، والنظر في العقبى والآخرة، وعَدم الاغتِرار والركون لحُطام الدنيا وزخْرفهَا، فقارن بين ناقة وجمَل وشاة تأوي بها إلى رحْلك، وبين أن تصحب خيرة الله من خلقه، وأمينه على وحيه، وكذلك هو الحال في أتباع هديه وسنته، فإذا انصرف الناس

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨١٨) ومسلم (١٠٦١). وهذا لفظ الإمام أحمد.

لمتاعهم ودينارهم، فليكن همك هو تحصيل سنة رسول الله، والنَّهل من سلسَالها، والرشْف من رحيقِهَا، مع الموازنة بين حظ الدنيا وحق الآخرة.

تـحدَّث ولا تـخرُج بكل عجيبَة — عن البَحر أو تلك الخِلال الزَّواهِر
ولا عـيْب في أخـلاقِـه غيـر أنـهَا — فـرَائـد در مـا لـهَـا مـن نـظَـائـر
يُـقِـر لـهـا بـالـفـضْـل كـل مـنَـازع — إذا قيل يوم الجَمع هل من مفَاخر

ثم تأمل بعد ذلك في كيفية تعامله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الخطأ، وكيف يحوره لأن ينقلب نبلاً وصوابـًا، في بحث عن زوايا الخير والإبدَاع لدى المخطئ، فلندع القلم لأبي محذورة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليحدثنا عن مجريات هذا الخبر قائلاً:

قفل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حُنين، فلقينا ببَعض الطريق، فأذَّن مؤذن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصَّلاة عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسَمعنا صوت المؤذن، ونحن متَنكبون فصرَخنا نحكيْه، ونسَتهزئ به، فسمع رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّوت، فأرسل إلينا إلى أن وقفنَا بين يديه، فقال: «**أيكم الذي سمعت صَوته قد ارتفَع؟**» فأشَار القوم كلهم إلي، وصدقوا فأرسَلهم كلهم، وحبسَني، فقال: «**قم فأذن بالصلاة**» فقُمت، ولا شيء أكره إلي من رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا مما يأمُرني به، فقُمت بين يدي رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فألقَى إلي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التَّأذين هو نفسه، ثم دعَاني حين قضيت التأذين، فأعطَاني صُرة فيها شيء من فضَّة، ثم وضع يده على ناصيَة أبي محذُورة، ثم أمارها على وجهه مرتين، ثم مر بين يديه، ثم على كَبده، ثم بلغت يد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُرة أبي محذُورة، ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بارك الله فيك**»، فقلت: يا رسول الله، مرني بالتأذين بمكة، فقال: «**قد أمَرتك به**»، وذهب كل شيء كان لرسول الله



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كراهية، وعَاد ذلك محبة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)].

ولم يكن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ **يحصُر مواهبهم وقدُراتهم في مجال واحد، بل كان يوظِّف كل واحد بالمكان الذي يناسبه،** فبلال بن رباح وابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الأذان، وحذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمين للسر، وخَالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على مقدمَة الجيش وقيادة السرَايا، ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للقضاء وتعليم الناس في اليمن، وأبو هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لروايَة الحديث، وأنَس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الخدمَة وقضَاء الحاجَة، وفي وصيَّة لأبي ذَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إني أراك ضعيفًا، وإني أحِب لك ما أحب لنفْسي، لا تأمرَن على اثنَين، ولا تولين مَال يتِيم**»[(٢)].

ولذلك من تميز المُربي أن يعرف الجوانب التي يتميز بها الْمتربي أو يحسنها فيوظف قدراته فيها، لا أن يجعله نسخة منه، أو على ما يراه أنه مهم، إلا إذا كان المتلقي من الممكن أن يتميز في ذلك ويحسنه.

وفي ظِلال هذه التَّربية، ومن أحضَان المدرسَة المحمدية تخرّجَ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي يخيَّر يوم القيامة من أبواب الجنَّة الثمانية أيها شاء، وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فارُوق هذه الأمة الذي لو رآه الشَّيطان سالكًا فجًّا لسلك فجاً غير فجِّه، وسعْد بن معَاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي اهتَز لموته عرشُ الرحمن، والعَلاء بن الحضْرمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي لو أقسم على الله لأبره، والذي بعثه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقتال قوم في البحرين فحال البحر بينهم فدعا الله ثم ركب هو وجيشه البحر فلم يغرقهم[(٣)]، وفي هذا

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤/ ٩٨). وصححه الجوزقاني، قال البوصيري: إسناده صحيح. مصباح الزجاجة (١/ ٨٩).
(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٥٧).
(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ١٥)، والكبير (١٨/ ٩٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٥٣)، وينظر: البداية والنهاية (٩/ ٣١١)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة (٩/١٦١).



يقول إقبال:

من ذا الذي رفع السُّيوف ليَرْفع اسمَك ... فوق هامَات النجُوم منَارَا
كنا جبالاً في الجبَال وربما ... سرْنا على موج البحَار بحَارا
بمعابد الإفرنْج كان أذاننَا ... قبل الكتَائب يفتَح الأمصَارا
ندعُو جهاراً لا إله سوى الذي ... خلَق الوجُود وقدَّر الأقْدَارا

ومنها تخرج عبد الله بن عمرو بن حَرام كليم الرحمَن بلا ترجمَان، وغيرهم ممن يتألَّق في سماء العظَمة، ومنابر العز، وهامَات المجْد

يا أمتي كنَّا شعَاع هدايَة ... للنَّاس في الدنيَا لها أنْوار
كنا على الأيَّام صوْت مؤذن ... فرحَت به الأمصار والأسْحَار
كنا هطِيل الغيْث ما سقيَت بنا ... أرض فماتَت بعدَها الأزهَار
سلْ كل أرض قَد وطئْنا سهلَهَا ... ستُجيبُك الأمجَاد والآثَار
ما عدْت أجزِم أننَا من أمَّة ... تاهت بها الأمجَاد والأقمَار
يا رب إنا قد أتينا نشتكي ... ظلما وأنْت الوَاحِد القَهَّار



﴿ وللحبِّ مِداد ﴾

لقد كان لتلك التَّربية التي غرَسها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظَم الأثَر في زرع أسمَى غايات الحُب، وأنبل معاني التضحيَة، وأرفع مقَامات الصدْق في قلوب أصحابه له، فهم يتفَانون من أجل خدمَته، ويتنافسُون في سبيل رضاه، وهَا هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يأتي مثخَناً في جرَاحه، قد فَقَدَ جملةً من أصحَابه في غزوة أحُد، فلما أقبل على المدينَة وقد سبقته أنبَاء المعركة إليها، فخرج الناس يسْألون عن أولادهم وأزواجِهم وأقَاربهم، وكان من بين تلك الجمُوع امرأةٌ خرجت لكنها لغَاية أخرى، ومقصد مغَاير، فلما أقبلت أخبرت باستشهاد والدها وأخيها في المعركة، فقالت: ما فعل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قالوا: خيرا، هو بحمد الله صالح على ما تحبين. قالت: أرونيه أنظر إليه! فما شفى غليلها إلا أن تنظر إليه بعينها وتطمئن على صحته، فأشاروا لها إليه فقالت: كل مصيبة بعدك يا رسول الله جلل![1] -أي: هينة يسِيرة.

فهل رأيت في أخبار المحبين أصدق وأنبل من هذا الحب؟! وأسمَى من هذه المشَاعر! وأصدق من هذا الإيمان!.

وصورة أخرى يسطِّرها زيد بن الدَّثِنَة وهو يقدم للقتل في مكَّة، وقد خرج الرجَال والنسَاء لحضُور ذلك المشهَد، فيقول أبو سفيَان: يا زيد أنشُدك بالله، أتحب أن محمداً الآن عندَنا مكانك تضْرب عنقُه، وأنك في أهْلك؟ فأجَابه زيد بصَوت عَالٍ سمعه الجميْع: والله ما أحِب أن محمَّداً الآن في مكَانه الذي هو فيْه،

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة (٩٩/ ٢)، والبيهقي في الدلائل (٣٠٢/ ٣) وابن المنذر في التفسير (٩٠٧)، وينظر: البداية والنهاية (٤/ ٤٧).



تصيبُه شوكَة تؤذيه، وأني جَالس في أهْلِي. وتعجَّب الناس أشد العجَب من هذا الجَواب، فقال أبو سفيَان لمن حولَه: ما رأَيتُ من النَّاس أحَداً يحب أحَداً، كحُب أصحَاب محمَّدٍ محمَّدا[١]!

ثم تمثل ببيتين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قبل أن يقتل:

فلست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي جنب كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

وفي صُلح الحديبيَة أرسَلت قريش عُروة بن مَسعُود الثَّقفي ليفَاوض رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما أتى إليه بهَرته جلالته وحُبُّ أصحابه له، فرجع إلى قريش فقال: والله لقَد دخلت على كسْرى في ملكه، وقيصَر في ملكه، والنجَاشي في ملكه، ورأيت مُلوك اليمَن، والله ما رأَيت قومَاً يعظمُون صاحبهم ويحبُّونه كحُب أصحَاب محمَّد لمحمَّد، والله ما التفَت في جهَة إلا التفَتوا جميعاً في الجهَة التي نظَر إليها، ولا تكَلم إلا سَكتُوا كأن على رؤوسِهم الطَّير، والله إن تنخَّم نخَامة إلا وقعَت في كف رجُل منهم فدلك بها وجهَه وجلدَه، وإذا أمرهم ابتَدروا أمْره، وإذا توَضَّأ كادوا يقتتلُون على وَضُوئه، وما يحِدُّون إليه النظَر تعظيماً له[٢].

وهكذا هي سواقي الإيمان إذا نبعَت في القَلب، أنبتَت جنَاناً حسَاناً من الكَمال، وثمَاراً يانعَةً من العَزْم، وقطُوفاً دانيَةً من الحكمَة.

ألا يا مُحب المصْطَفى زد صَبابةً ... وضَمِّخ لسَان الذكْر منك بِطيْبه
ولا تعْبَأن بالمبطِلين فإنما ... عَلامة حُب الله حُب حَبيبِه

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة (٢/١٧٢)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٣/ ١١٨٤)، وينظر: البداية والنهاية (٥/٥٠٥)، أما البيتان ففي صحيح البخاري.
(٢) أخرجه البخاري (٢٥٨١).



وهذا حَبيْب بن زَيد أرسَله النبي ﷺ إلى مسَيلمة الكَذاب في اليمَامة، فلما دخَل عليه وكلمَه، جمع مسيْلمة أهل اليَمامة وأوقف حبيْب أمَامَه ثم قال: أتشهَد أن محمَّدا رسُول الله؟ فقال: نعم، فقال أتشهَد أني رسُول الله؟ فقال حَبيب: لا أسمَع. فأعَاد عليه: أتشهَد أن محمدا رسول الله؟ فقال: نعم، فقال: أتشهد أني رسُول الله؟ فقال حَبيب: لا أسمع!

فغضب مسيْلمة عند ذلك ودعَا السَّياف فأمره أن يقطعه عضواً عضواً ثم قتله(١)، وأهْل اليمَامة كلهُم ينظُرون ويتأمَّلون هذا المشهَد، ولكن من لم يجعَل الله له نُورا فما له من نُور.

ولكأن الحَادي يحدُو به فيقول:

واهتِف بهم أنا من جُنُود مُحمَّد	بايعتُه فيمَا يُريح ويتْعبُ
رايَاتهَا خفَّاقَة وسُيُوفها	صَفَّاقة وجُنُودُهَا لا تُغلَبُ
واهتَزَّت الدُّنيا لصَوت محمَّد	الله أكْبَر شَرقُها والمغْربُ

وهذا صدِّيق هذه الأمَّة يلِح على رسُول الله ﷺ أن يظهَروا أمَام قرَيش في الكَعبة لما بلَغ عددُهم ثمانيةً وثلاثين رجُلا، فقال: «**يا أبا بكر إنَّا قليْل**» فلم يزَل أبو بكر يلِح حتى ظهَر رسُول الله وتفرَّق المسْلمون في نواحي المسْجد كل رجُل في عشْرين، وقام أبو بكر في النَّاس خطيبًا، ورسول الله جَالس، فكَان أول خطيْب دعا إلى الله وإلى رسُول الله، وثَار المشْركُون على أبي بكر فوطؤوه وضَربوه ضَربا شَديدًا، ودنا منه الفَاسق عُتبة بن رَبيعَة فجَعَل يضربُه بنعلين

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة (١/ ٤٦٦)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٨٢٨/ ٢)، وينظر: الإصابة (١/ ٣٠٦)، والاستيعاب (١/ ٣٢٨).



ويحرفُهمَا في وجْهه، ونزَا على بطنه، حتى حَملُوه ولا يشُكون في موته وقال بنو تيم قبيْلتُه: والله لئن مَات لنقتُلن عتبَة بن ربيعَة، فجَعلوا يكلمُون أبا بكر حتى كان آخِر النَّهَار فأجاب، فكان أول ما قال: ما فعل رسول الله؟ فتكلموا عليْه وعَذلُوه وقاموا عنه، فجَاءته أمه أم الخَير بطَعَام فقال: إن لله علَي أن لا أذُوق طعَامَا ولا أشرَب شَرَابَا حتى أرى رسُول الله، فلما جَن الليْل وسَكن النَّاس خرج يتكئ علَى أمه وأم جَميْل بنت الخَطَّاب حتى أتى رسول الله فأكَب عليه يقبِّله، وأكب عليه المسْلمون يعانقُونه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه[1].

وفي غزوة أحد يقول الزبير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: خرجنا مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مصعدين، فذهب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على ظهره لينهض على صخرة فلم يستطع، فبرك طلحة بن عبيد الله تحته، فصعد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على ظهره حتى جلس على الصخرة، قال الزبير: فسمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**أوجَبَ طلحة**»[2]، أي: أوجب عملاً يستحق به الجنة.

وكان أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **إذا ذكر يوم أحد بكَى، ثم قال:** ذاك كله يوم طلحة[3]، انهزم الناس عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأبو طلحة بين يدي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مجوب عليه بحجفة له، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثـًا، وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل، فيقول: «**انثرها لأبي طلحة**» قال: ويشرف النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي،

(١) ينظر: أخبار القضاة لوكيع (١/ ١٨٢)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٣٠/ ٤٦)، والبداية والنهاية (٧٦/ ٤).

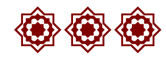
(٢) أخرجه ابن حبان (١٥/ ٤٣٦)، وبنحوه الترمذي وصححه (رقم ٣٧٣٨).

(٣) أخرجه أبو داود الطيالسي (٨/ ١).

لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك[١].

ويُسأل عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كيف كان حبكم لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فيقول: كان والله أحبّ إلينا من أموالنا وأولادنا، وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ[٢].

قومٌ سمَت بهم العَوَارف والنُّهى　　أن يرغبوا في كُل فَان قَالي
قوم أبَت بهم المفَاخر والعُلى　　أن يشْتروا غَير النفِيْس الغَالي



(١) أخرجه البخاري (٤٠٦٤)، ومسلم (١٨١١).
(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (٢/ ٥٢).



﴿ مقامُ الدَّعْوَة ﴾

إذا أرَدت أن تعيش في ميدَان السبَاق والتضْحيَة، وأحببْت أن تشَاهد همًّا رسَخ في القَلب، وتغَلغَل في الرُّوح، وسَرى في الأعمَاق، وتشَربه الجَسَد، وجَرى مجْرى الدَّم، فاقرأ وقلِّب صفحَات سِيرة الحبيْب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعْوته، وانظر إلى حيَاة حفَلَت بالصدْق، وامتلأَت بالعَدل، وازدَهرت بالبَذل، وتجَمَّلت بالكَرم، وأينَعت بالجُود، واكتَملت بهدَاية البَشرية

تبْني الفضَائل أبـرَاجـًا مُشَيَّدةً ... نصْب الخِيام التي من أَروَع الخيَمِ
إذا مُلوك الـورَى صَفوا مَوَائدَهَم ... عَلَى شَهِي من الأكْـلات وَالأُدُمِ
صَففْتَ مَـائـدَةً لـلـرُّوح مَطعَمُها ... عَذبٌ من الوَحي أو عَذْب من الكَلم
إن كَـان أحبَبْت بعْد الله مِثلَك في ... بَدو وَحَضْر ومن عُربٍ ومن عَجَمِ
فلا اشتَفَى ناظِري من مَنظَر حَسَن ... ولا تَـفـوَّه بـالـقَـول الـسَّـديْـد فَـمِ

لقد استَغَل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل لحظَة من لحَظَاته، وكُل فرصَة في حيَاته، لدَلالَة الأمة على الخَير، ودَعْوة الناس إلى الرُّشْد، وهدَاية البَشرية إلى النُّور، «فقد دعَا في جميع الأمَاكن والأحوَال والأزمَان، ودَعَا جميْع أصنَاف النَّاس، واستخدَم جميع الأسَاليب المشْروعَة.

دعَا فوق الجبَل، وفي المسْجِد، وفي الطَّريق والسُّوق، وفي منَازل الناس بالموَاسم، وحَتى في المقْبَرة، ودعَا في الحَضَر والسَّفَر، وفي الأمْن والقتَال، في صحَّته ومَرضِه، وحينمَا كان يزُور أو يزَار، دعَا من أحبُّوه، ومن أبغضُوه وآذَوه، ومن استمَعوا إلى دعْوته ومن أعرضُوا عنها، وبعَث الرسَائل والرسُل إلى الملُوك

والرؤسَاء، ممن لم يتمَكن من الذهَاب إليهم بنفسه»[١].

وتأمَّل كيف كَان يستغِل كل فرصَة ولحظَة وحدَث، كل ذلك تبليغًا لرسَالة الله، ورحمَة ورأفَة في الأمة أن تهْوي في شفِير جهنَّم، فهذا صبي يهُودي كان يخدِم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمَرض ذاتَ مرَّة، فأتاه النبي يعُوده، فقعَد عند رأسِه وإذا هو في لحظَات الاحتِضَار وآخر سَاعَات الدُّنيا، فقال له: «**أسْلِم**» فنظَر الصبي إلى أبيه وهو عندَه فقال له: أطِع أبا القَاسم، فأسْلم، ثم مات فخَرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسْتبشِراً فرحًا وكأنما حِيزَت له الدنيَا بحذافيْرها وهو يقول: «**الحمْدُ لله الذي أنقَذَه بي من النَّار**»[٢].

فانظُر كيف أنه اجتمَعت فيه خصْلتَان تجعلان المرْء لا يعبأ به، الصغَر واليهُودية، إضافة إلى كونه على فراش الموت، فلو أسلم لما انتفع منه المسلمون بشيء، ومع ذلك لم يزدَري ذلك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولم يستقله، بل حَاول حتى شَرَح الله صدرَه، ليعلم النَّاس أن هذا الدين قَام على طلب الهدى والخير لهم، لا لمصالح شخصية، أو مطامع سياسيَّة.

وفي موقف مشَابه يدخُل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عمِّه أبي طَالب الذي آزرَه ونصَره، وهو في سَكَرات الموْت فلم يَيأس من دعوَته، مع أنه عَاش يدعُوه عشرَ سنين فلم يسْلم، فوقف على رأسِه وهو يقوْل: «**يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله**» فقال رأسُ الشرك أبو جهْل، وعبد الله بن أبي أُمية: يا أبا طالب أترغَب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسُول الله يعرضُها عليه، ويعودَان بتلك المقَالة حتى كان آخرَ ما قال: هُو على ملة عبد المطلب. ثم أنزَل الله: ﴿إِنَّكَ

(١) سيد رجال التاريخ (ص١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٣٣).



﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾[1] (سورة القصص، الآية ٥٦).

فانظر إلى أثر رفقة الخير ورفقة السوء، لم يتركوا إغواءه حتى وهو على فراش الموت.

ولم يكُن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ **يحقِر أحداً أو يبْخل في علم على أحَد،** ففي أحَد الأيام كان يسيْر على حمَارٍ له وقد أردَف خلفه عبد الله بن عبَّاس وكان غلامَاً صغيرَاً، فقال: «**يا غُلام إني أعلمك كلمَات: احفظ الله يحفظْك، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سَألت فاسأَل الله، وإذا استَعَنت فاستَعن بالله، واعلَم أن الأمة لو اجتمعُوا على أن ينفَعوك لم ينفعُوك إلا بشيء قد كتبه الله لَك، ولوا اجتَمعوا على أن يضُروك، لم يضُروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله علَيك، رفعَت الأقلام وجفَّت الصُّحُف**»[2].

وهذا جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يحَدث عن دعوته فيقول:** لبِث رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر سنِين يتبع الناس في منَازلهم في الموَاسم، في مجاز ومِجنَّة وعُكَاظ، ومنازلهم في منى فيقول: «**من يؤويني؟ ومن ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي فله الجنة**» فلا يجِد أحداً ينصُره ولا يؤويه، حتى إن الرجُل يرحَل من مصْر أو اليمَن إلى ذي رحمه، فيأتيه قومُه فيقولون له: احذَر غُلام قرَيش لا يفتننَّك[3].

وقال رجُل من كنَانة: رأيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسُوق ذي المجَاز يتخللها يقول: «**يا أيها النَّاس قولوا: لا إلَه إلا الله تفلحُوا**» وأبو جَهل يحْثي عليه

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٤) مسلم (٢٤).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وصححه.
(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٤٦٩٤)، وصححه البوصيري. إتحاف الخيرة المهرة (٧/ ٣٥٢).



التُّراب ويقول: لا يغْوِيْكم هذا عن دِينِكم، فإنما يُرِيْد لتترُكوا آلهتكم، وتتركوا اللات والعُزَّى، وما يلتفِت إليه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

وفي أحَد أسفَاره وهو يمشِي أقبَل عليه أعرابي فلما دنا منه قال له: «**أين تُريد؟**» فقال الأعرابي: إلى أهْلي. فقال: «**هل لك إلى خَير؟**» قال: وما هُو؟ قال: «**تشهَد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شَريك له، وأن مُحمَّداً عبده ورسُوله**» فقال الأعرابي: هل من شَاهد على ما تقول؟ قال: «**نعم هذه الشَّجَرة**» فدعاها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي على شَاطئ الوادي، فأقبَلت تخُد الأرض خدًّا، فقامَت بين يديه، فاستَشهدَها ثلاثًا فشهدَت أنه كمَا قال، ثم إنها رجَعَت إلى منبتِها، فرجع الأعرابي إلى قومِه فقال: إن يتبعُوني أتيتُك بهم، وإلا رجَعت إليك وكنت معَك(٢).

بل بلَغ من حرصِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه كان يرجُوا هداية أجيَال من آذَوه أشَد الأذَى وطردُوه وسخِروا منه، فعندما رجَع مردودًا من الطائف أرسَل الله له مَلك الجبَال فخَيره إن شَاء أن يطبِق عليهم الأخشبين جبَلي مكة فيموتوا، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**بل أسْتَأني بهم لعَل الله أن يُخرج من أصْلابهم من يعبُد الله**»(٣).

ولما تُوفي أحَد أصحابه ووضعوه ليُلحدوه في قبره، انتهَز رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **هذه الفرصَة**، ولحظَة التأثر من أصحَابه، وفرصَة اجتمَاعهم، فوعَظهم موعظة جَليلَة عظيمَة، وعلمهم فيها ما يحصل للميت من نَزْع الرُّوح، وحضُور الملائكة، وصعُود الرُّوح إلى السَّماء، وماذا يحصُل له بعد مماته في قبره

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٦٦٥٤)، وصححه ابن الملقن. البدر المنير (١/ ٦٨٠).
(٢) أخرجه ابن حبان (٦٥٠٥)، والدارمي (٦)، وصححه البوصيري، وجود إسناده ابن كثير. إتحاف الخيرة المهرة (٧/ ١٠٦)، البداية والنهاية (٦/ ١٣٠).
(٣) أخرجه البخاري (٣٠٥٩) مسلم (١٧٩٥).



وسؤَال الملكَين له[١].

بل إنه - صَلَوات الله وسَلامه عليه - لم يترك دعوَة هذه الأمة حتى وهو في مرَض الموت فقد كان يقول: «**قاتَل الله اليَهود والنصَارى، اتخذوا قبُور أنبيَائهم مسَاجِد**» يحذر من صنيعِهم[٢]، ويحذر من وضع الأضرحة في المساجد، ومن الطواف عليها، ومن بذل النذور لها، حمايةً لحمى التوحيد، أن يصرف شيء من العبادة لغير الخالق الرازق سبحانه.

ثم تأمل حدبه على هداية الأمة أنه كان وهو يجُود بنفْسه، وفي السكرات التي ينشغل الإنسان فيها عن كل شؤون الحياة، يحض الأمة على الصلة بربها فيقُول: «**الصَّلاة الصَّلاة، وما مَلكَت أيمانُكم، وما زال يغرغر بها في صدره، وما يفيض بها لسانه**»[٣].

لتحْمِل هذه الرسَالة الخَالِدَة على أكتَافها، ولتخْرج العبَاد من عبَادة العبَاد إلى عبَادة الله وحدَه، ولتكون مشْعَلاً ونبراسَاً يضيء في ديَاجي ظُلمَات الجهْل والشِّرك.

وكان يراعي نفسياتِ الآخرين وجوانب التَّأثير فيهم كلٌ بما يناسبه، ففي صلح الحديبية أرسلت قَريش رجلاً من بني كنَانَة ليفاوض النبي ﷺ، فَلَمَّا أشرف قال ﷺ: «**هَذَا فلَان، وَهُوَ من قوم يعظمون الْبُدن، فابعثوها**

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٨٥٥٧)، وصححه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٠٠).
(٢) أخرجه البخاري (١٢٦٥) مسلم (٥٣١).
(٣) أخرجه الإمام أحمد (٤٤ / ٨٤)، من دون لفظ: (حتى صار يغرغر بها في صدره، وما كان يفيض بها لسانه)، فقد أخرجها ابن حبان والحاكم. وقد صحح الحديث البيهقي في دلائل النبوة (٧/ ٢٠٥)، وجوده ابن الملقن في شرحه للبخاري (٢١/ ٦٤٥).



لَهُ» فَبعثت لَهُ، واستقبله النَّاس يلبون، فَلَمَّا رأى ذَلِك قَالَ: سُبْحَانَ الله، مَا يَنْبَغِي لهَؤُلَاء أَن يصدوا عَن الْبَيْت، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابه قَالَ: رَأَيْت الْبدن قد قلدت وأشعرت، فَمَا أرى أَن يصدوا عَن الْبَيْت[1].

ولما أسلم أبو سُفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال العَباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله إن أبا سفيان رجلٌ يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئًا، قال: «**نَعَمْ مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ**»[2].

وعلم تأثُّر سادة القَبائل بالمال فأعطاهم يتألفُهم ليقوي إيمَانهم، وليؤثروا فيمن تحتَ أيديْهم من العَامة.

وهكذا كان يكسب النَّاس بما يرغبونه ويحبونه.

فعلى كل مؤمِن أن يسيْر على خُطا حَبيبه، ويسْلك منهَج نبيه وقدوَته، ويرفَع شعَار:

هي دعوَة لله أقبَل فجْرهَا	بالنُّور يخفِق مُشْرقًا وضَّاءا
ضَربَت بأعمَاق النفُوس جُذورُها	وسَمَت منَاراً للهُدى ولوَاءَا
وسيُزهر الحُلم الذي نصْبوا له	أرضًا تعانقُ في الوجُودِ سمَاءَا
بالعزائِم حين تنهَض حرَّةً	وتُحطِّم النِّير البغِيْض هَبَاءَا
تمشي علَى هَام النجُوم عَزيزَةً	تذكي النُّفوس تَوثُّبًا ومضَاءَا

«لقد فرغ رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمْر بطنِه، فما يفكر أجَاع في سبيْل الدعوَة أم شَبع، وفرَغ من أمر جِلدِه فما يبُالي ألِبس أكسية الصُّوف أم ارتدَى برُود

(١) أخرجه البخاري (١٦٩٤).
(٢) أخرجه مسلم (١٧٨٠).



اليمن، وفرَغ من أمر الجَاه فما يعيقُه أن يُلقى في طريقه الشَّوك، ولا يزدَهيْه أن يفرش بالورود، لم يفَكر في أن يستَغِل دعوته لينَال زعَامَة، ولو أرادَها لكانت طَوع يدَيه، أو ليَجمَع مَالاً، أو ليَقتني ضَيعة، أو ليمُد يَده إلى أتبَاعه ليقبلوها ويملؤوها فيَعيش معظمًا"[١] مبجلاً مرفهًا مخدومًا، ولكن جاهد وناضَل وحمَل الأذَى، ولم يميِّز نفسه عن أصغَر واحِد من أتباعه في مطعَم أو ملبَس، ولا متعةٍ ولا جاهٍ، بهذه الحكمَة وبهذا التدبيْر أرسَى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوَاعِد مجتمع جَديْد، كانت صورتُه الظاهرَة بيانًا وآثاراً للمعاني التي كان يتمتَّع بها أولئك الأمجَاد، وكان يتعَهدهم بالتعليْم والتربيَة، وتزكيَة النفُوس، والحث على مكَارم الأخْلاق، ويؤدبهم بآدَاب الوُد والإخَاء والمجْد والشرَف والعبَادة والطاعَة، سأله رجُل: أي الإسلام خَير؟ فقال: «**تطعم الطعام وتقرؤ السلام على من عرفت ومن لم تعرف**»[٢].

وسأله آخر: أي المسلمين خير؟ فقال: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[٣].

كما كان يبين لهم ما في العبَادَات من الفضَائل والأجْر والثوَاب عنْدَ الله، وكَان يربطهُم بالوحْي النازِل من السَّماء ربطًا موثقًا، فكان يقرؤه عليهم ويقرؤونه، لتكون هذه الدرَاسة إشعاراً بما عليهم من حقُوق الدعوَة وتبعَات الرسَالة، فضْلاً عن ضرورَة الفَهم والتَّدبير، وهكَذا هذَّب نفوسهم، ورفع معنوياتهم، وأيقَظ مواهبَهم، وزودَهم بأعلَى القيَم، حتى وصَلوا إلى أعلَى قمَّة من الكمَال البَشري.



(١) سيد رجال التاريخ (ص٨١).
(٢) أخرجه البخاري (٥٨٨٢) مسلم (٣٩).
(٣) أخرجه مسلم (٤٠).

مَقَامُ الإقدَام

إذا حَمَل كُل كاتبٍ قَلمَه، ووضَع كل مُؤلفٍ يده ليسَطر كتَابًا، أو يكتبَ مقَالاً، أو يبعَث رسَالة، تَردد وتحَير وتَوقفَ كثيراً؛ لينظُر بم يفتَتح ويبتَدئ مقَاله وكتَابته، فترَاه ينمِّق العبَارة، ويتفَنن في الصِّياغة، ليَجْذب القَارئ ويشَوقه لمتَابعة أسْطُر مقالته، أو صفَحَات كتَابه، ولكن عُنوَان هَذا المقَام لا يحتَاج في نظمِه وسَبكه لتزويْق العبَارات، ولا لحشْو الكلمَات، ولا لبهرَجة الألفَاظ، ذاك أنه يبعَث في رَوْع قارئه من أول وهْلة معاني العزِّ والإباء، والشُّموخ والجسَارة، فيحَرك كوامن النَّفس، ويلهب عَوَاطف الحس، في المضي قُدمـًا لكل مَا يقَرب إلى المولى عَزَّوَجَلَّ ويصْرف عن معصيَته.

فكَيف بك إذا كَان هذا المقَام يتحَدث عن إقدَام أبسَل الشُّجعان، وصَانع الأبطَال، عمَّن وصَفه أصحَابه وصَحَابته - رضْوان الله تعَالى عليهم - فقال متحَدثهم واصفـًا إقدامَه وشَجَاعته، وبذله وتضحيَته، «كنَّا والله إذا احمرَّ البأس نتَّقي برسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن الشُّجَاع منا للذي يحَاذي به»[1]، وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «لقَد رأيتنَا يوم بَدر ونحْن نلوذ برسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهُو أقربُنا إلى العَدو، وكان من أشَد النَّاس يومئذٍ بأسًا»[2].

ملك الشَّجاعَة فهي طَوع زمَامه ... ولغَيره جَمَحَت وليسَت تُركَبُ

ومهمَا تحَدثَت الأخبَار، ونقَلت السِّير والآثَار، جُرأته وإقدامَه وشَجَاعته، فلن تَستَطيع أن توفي ذلك البَذل، أو تُقوِّم ذلك العَدل، أو تَسِم تلك التضْحيَة؛ التي قَام بها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

(١) أخرجه مسلم (١٦٧٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢ / ٨١).



وعَلـى تفَنُّن واصِفيه بوَصْفِـهِ　　　يفْنَى الـزَّمـان وفيه مَالم يوصَفُ

إن الإقدَام والشَّجَاعة في حَياته عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلَامُ سمةٌ ظاهرَة، وعَلامةٌ بارزَة، فأعْلامُه خفَّاقة، وسُيوفُه برَّاقة، وصَولته في الحقِّ ثَائرة، وجُيوشه في العَدل سَائرة، فتُربة الأرض، وصُخور الجبَال، وأديم السَّماء، تُنبئك عن دَويِّ صَوته، وثبات جأشه، في خمسٍ وعشْرين غزوةً سَار فيهَا بنفسه، منَاهضَـًا لأعدَاء الله الذين جَعَلوا معه شَريكـًا في عبَادته وألوهيَّته.

واستَمع إلى أنسِ بن مَالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أحَد مجالسِه وهو يحَدث أصحَابه عن هذه المثُل فيقول: «كان رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسَن النَّاس، وكان أجْود النَّاس، وكان أشجَع الناس، ولقَد فزع أهل المدينَة ذات ليلة، فانطَلق ناس قبل الصَّوت، فتَلقاهم رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راجعَـًا وقد سَبقَهم إلى الصَّوت، وهو على فرَسٍ لأبي طلحَة عُرْيٍ، وفي عنُقه السَّيف، وهو يقُول: «**لم ترَاعُوا لم ترَاعُوا**»[١].

ولا غَرْو في ذلك ولا عجَب فهُو القائل «وددت أن أقتَل في سَبيل الله، ثم أحيَا ثم أقتَل، ثم أحيَا ثم أقتَل، ثم أحيَا ثم أقتَل»[٢]، والقَائل كذلك «**لأن أقتل في سَبيل الله أحَب إلي من أن يكون لي أهْل الوَبَر والمدَر**»[٣].

فلقَد كان بأبي هو وأمي – صَلوات الله وسَلامه عَليه – من أجَلِّ أمانيْه أن يسيل دَمه، وتتَنَاثر أشْلاؤه، في طاعة مَولاه، وفي سَبيل رضَاه.

فَـرْد التَّواضُع فرد الجوْد مَكرُمَـةً　　　فَـرد الرجَال عن الأشبَاه والنُّظرَا
أعْلى العُلا في العُلا قَدراً وأمنعُهُم　　　دارَاً وجَـاراً وإسمـًا في السَّماء ذُرَا

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥١) مسلم (٢٣٠٧).
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٤٤) مسلم (١٨٧٦).
(٣) أخرجه النسائي (٦ / ٣٣)، وحسنه الألباني.



ومن أيامه التي حَفَلت بصِدق إرادته، وثبَات عَزيمته، غَزوةُ بَدرٍ الكُبرَى، التي خرَج فيها مُسرعـًا يحُث السَّير، ويستَبق الخطَى، في ثلاثمِائة وأربعَة عَشَر رجُلاً من أصحَابه، يعتقِب بعيراً هو وعَلي ومَرثَدٌ الغنَوي، فلمَّا بلغ الروحَاء أتاه خَبر النفير الذي قامَت به قَريش لحمَاية قافلتهَا التي كان رسُول الله يريد الاستيْلاء عليها؛ فجَمع عند ذلك أصحَابه يستَشيرهم، وهو الذي ما كان يقطَع أمراً دونهم، فقَام أبو بكرٍ فتكلم فأحسَن، ثم قام عمَر فتكلم فأحسَن، ثم قام المقدَاد فقال: يا رسُول الله، امضِ لما أراك الله فنحْن معك، والله لا نقول كمَا قال بنو إسْرائيل لموسَى: اذهَب أنت وربك فقاتلا إنا هَاهنَا قاعدون، ولكن: اذهب أنت وربك فقَاتلا إنا معَكم مقَاتلون.

فَطفق رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أشِيروا عليَّ أيها النَّاس**» وإنما يريْد الأنصَار، لأنهم لما بايعوا ليلة العَقَبة بايعوه على أن يمنَعوه مما يمنعُون منه أبناءهم ونسَاءهم مادام بين أظهُرهم، ولم تكن المبَايعة على القتَال خَارج المدينة، فقَام سَعد بن معَاذ فقال: لقَد آمنا بك وصَدقناك، وشَهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطينَاك على ذلك عهُودنا ومواثيقَنا على السَّمع والطاعَة لك، فامض لما أردت فنَحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استَعرضت بنا البَحر فخضتَه لخضنَاه معك ما تخَلف منا رجُلٌ واحِد، وما نكره أن نلقى عَدونا غَداً، إنا لصُبر في الحرب، صُدقٌ عند اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقَر به عينك، فَسر بنا على بركة الله، فَسُر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك فقال: «**سِيروا وأبشِروا، فإن الله وعَدني إحدى الطَّائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصَارع القوم**»[١] ثم مضَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى نَزل عند آبار بَدر فأمطَرت السَّماء تلك الليلة، فكان على المشْركين وابلاً

(١) جاءت القصة بسياقات متعددة عند أصحاب السنن، ينظر فيها وما بعدها: مرويات غزوة بدر (ص١٤٣).



شَديداً وكان على المسْلمين طَلاً طهَّرهم الله به، وأذهَب عَنهم رجْز الشَّيطان، ووطأ به الأرض وثبَّت به الأقدام، ومهَّد به المنزل.

فلما كان الصَّباح بنى الصَّحَابة له عَريشَاً يُطل به على ميدان القتال، فنَزَل إلى سَاحة المعرَكة وجَعل يشير بيده «**هَذا مصْرع فلان**» ويضَع يده على الأرض هَاهنَا وهَاهنَا، فما تبَاعد أحَدهم عن موضع يد رسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي إشَارته هذه لفتَة مهمَّة في جانب تَعزيز الثقَة بالنفْس لدَى الأتبَاع، وأن الظفَر لهم وحليفُهم، من غير مبالغَة في الموعُود تحققه.

وفي ليلة المعرَكة أصَاب المسْلمين نعَاس ألقي عليهم فناموا، وقام أكمَل الخلق إيمانـًا، وأرسخِهِم يقينـًا، وأصدَقهم عبَادةً، يوحِّد خَالقه ويَدعوه ويتَملقه، ويَسأله النَّصر والتمكين، ويُلح عليه، ويتضَرع بين يديه، فأجَاب له الله ماطلَب، ويسَّر له ما أرَاد، وأمَده بجُندٍ من الملائكَة يتقَدمهم ويقودهم رُوح القُدس جبريل عَليه السَّلام، وفي ذلك يصْدح حسَّان بأفخَر بيتٍ قالته العرَب واصفَاً ذلك الشَّرف وتلك المكرمة.

وبيَـوم بـدرٍ إذ يـرُد وجُـوهَـهُـم جبْريل تَـحْت لـوائنَا ومحمَّد

فلما نشَب القتَال، والتحَمَت الصُّفوف، قام عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يدعو ربه ثانيةً حتى سَقَط الرِّداء من ظهره وهو يقول: «**اللهُم إن تهلك هذه العصَابة اليَوم، لا تعبَد في الأرض أبداً**» فأشفَق عليه الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فجَعل يرفَع الردَاء على عَاتقه ويقول: يارسُول الله بعض منَاشدتك لربِّك، فإن الله منجزٌ لك ما وعَدَك، فأخَذَت رسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِنة من النوم، ثم استَيقظ مبتَسمـًا، فقال: «**أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده، على ثناياه النقع**» ثم



خَرَج من باب العَريش وهو يتلو: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ (سورة القمر، الآية ٤٥) فأعزَّ الله جُنده، ونصَر عبده، وكسَر كبريَاء قريش، فقُتل منهم سَبعون، وأُسرَ سَبعون آخرين.

ولما رجَعت قريش في غَزوة أحُد، لتثأر لقتلاها في معركة بَدر، خَرج رسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد لبسَ الدرع والمغفَر، في ألفِ رجُل من أصحَابه، للقَاء المشركين، فلما كان ببَعض الطريق رجَع عبدالله بن أبي بن سَلول بثلث الجيش، وقال بمَنطق النفَاق الذي مازال يردده تلامذته عَبر العصُور إلى هَذا الزمَن: ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾، فلم يثن ذلك شَيء من عَزم المصْطفى وعَزيمته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل تقَدم حَتى نزل أحُداً، فصَف الجيش وعَبأ الصُّفوف، ووضَع الرُّماة فوق الجبَل خَلفه لئلا يبغَتهم العدو من خَلفهم، وقدمَت قريشٌ بحَدِّها وحَديدها وكبريائها، تحَاد الله ورسُوله، فنشب القتال، وحَمي وَطيس المعرَكة، فكانت الغَلبة للمسْلمين وفَر المشْركون على أعقابهم، فنزَل الرمَاة وخَالفوا أمرَ القائد، فكرَّ خالد بن الوليد من خلفهم بكتيبَة من المشْركين، فقتَل من بقي من الرمَاة على الجبَل، ودَارة الدَّائرة على المسْلمين، فشَرف الله منهم رجَالاً بالشَّهادة واصطَفاهم، فبينَما هم كذلك إذ سمعَ رسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوتًا يقول: أين محمَّد لا نجَوت إن نجا، فإذا هو أُبي بن خَلَف قد أقبل مُقنعا بالحديد، وقد كان يقول للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندي فَرس، أعلفهَا كل يوم فَرَقًا من ذُرة، أقتلك عليهَا، فقال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا أقتُلك عليها إن شَاء الله**».

فلمَّا رآه يوم أحُد، شَد أُبيٌّ على فرَسه على رسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاعترَضه رجَال من المسْلمين، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده هَكذا، أي خَلوا طريقَه، وتنَاول الحربَة من الحارث بن الصِّمة، فانتفَض بها انتفَاضةً تفرَّقوا عنه



تفَرق الحمُر قد باغتهَا الأسَد، وطعنَه في عنقِه طعنةً تَدَأدَأ فيها عن فرسه مرَاراً، فرجَع إلى قريش يقول: قَتلني محمَّد، وهم يقولون: لا بأس لم يصبْك أذى، فقال: لقَد وعدني أن يقتلني بمكة، والله لو بصَق علي لقتَلني، فمَات عدُو الله بسَرِف وهم قافلون به إلى مكة[١].

وانتهَت تلك الغزوَة بما فيها من دروسٍ وعبَر، وجَاءت غَزوة الأحزَاب، فقام فيها رسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحَابته رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أعظَم قيام، وصَمَدوا أمام طوفان التحَزب المشْرك البالغ عشرَة آلاف رجل بأمنع سلاح، وأجوَد عتاد، وهم لا يجاوزون الثلاثة آلاف مع ضعفٍ في العُدة والعتاد، وشَظفٍ في العيش، ورفع الله مَنار الإسلام بعد ذلك اليوم، فجَعل المسلمون بعدَها يَغْزون ولا يُغزَون.

ثم جَاءت سَنة الحديبيَة فأشِيع فيها مقتل عثمَان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فهَب رسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثبَاتٍ، وشمَّر في عَزيمة، وصَاح في أصحَابه فتواثبوا إليه يبايعونه على الموت، وهو مستَظل تحْت شجَرة، فأنزل الله - جَل في عُلاه - رضَـًا بما صَنعوا، وإكرامـًا لهم على ما قدموا، آياتٍ فيها الرضى منه عليهم، والثناء والمدح، تتلى وتُردد إلى أن يَرث الأرض ومَن عليها، وأخبَر النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه «**لن يدخُل النار أحَدٌ بايع تحت الشَّجَرة**»[٢].

ورجَع عثمَان ولم يكن الخبر صَحيحَـًا، فتم الصُّلح الشهير مع قريش، فلم يكن المشركون ليوفوا بذمَّة، ولا ليفُوا بعهْد، فنقَضُوا ما أبرموا مع رسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنفَر إلى مكة بين يديه جَحَافل الإيمان، وعسَاكر الإسلام، في مَقْدمٍ لم ترَ الأرض في ذاكَ الزمَن أبهى ولا أجَل مَنظراً منه، فدَخَل مَكة التي أُخرج

(١) أخرجه ابن هشام (٢/ ٨٤)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٣٧)، وينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٠).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠) وصححه.

منهَا، وطَالما طَارده رجَالها، ووقفوا عَثرةً في طريق دعوته، فاتحـًا عَزيزاً، مُكرمـًا مبَجَّلاً، فلم يلهِه بهجَة الفتْح، ونشوَة النصْر، وعزَّة الموقف، عن الشُّكر والحمْد للمنعِم المتفضِّل ، فدخَلها في غَاية الذُّل ، وكمَال الخضُوع لربه، متخَشعـًا، ذقنه على راحلته[١]، وقد طأطأ رأسه تواضعـًا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل[٢].

ثم جمَع أولئك الذين آذوه ولمزوه وأخرَجُوه، عندَ الكعبة التي كان قَبْل سنَوات يوضَع على ظهْره عندَها من قِبَلهِم سَلا الجزُور، ويُنصب بين يديه فيها الأصنَام عنَاداً وتعَنتـًا، فما ترُاه يصنع بهم؟ وبمَ تظن عقَابهم سَيكون؟ لقَد قام فيهم وعلى وجوههم علامات الخَوف والوجَل، وقسَمَات الحيَاء والخجَل، فقال في هُدوء الصَّمت الذي يُخيِّم عليهم: «**ما تظنُّون أني فاعلٌ بكُم؟**» فقَالوا: خَيرا، أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كَريم، فقَال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في منطقٍ يهتَز نضرةً ويتَألق عَظمةً: «**اذهَبوا فأنتُم الطُّلقَاء**»[٣].

خُلقٌ أرقُّ من النَّسيم ونفحَةٌ	**تُغني العَديم وتنجِدُ المجهُودَا**
وسَــريــْـرَةٌ مَــرضيَّةٌ وعَــزيـمةٌ	**عُلويَّةٌ سمَت السَّمَاء صُعُودَا**
ذا البَحر علمًا ذا النجُوم طلائعًا	**ذا الصَّخْر حِلمًا ذا الغَمَامةُ جُودَا**

ثم انطَلقَ بعد فتح مَكة إلى هوَازن وقد اجتمَعوا في حُنين في عشْرين ألف رجُل، فلمَّا نزلوا وادي حُنين مع انبلاج الصُّبح، فاجَأتهم هَوازن في كَمينٍ في فم

(١) البداية والنهاية (٦/ ٥٤٧).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠٥)، البداية والنهاية (٦/ ٥٤٧).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٠٠)، وإسناده ضعيف، لكن العفو العام ثابت عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن دخل داره أو دار أبي سفيان.



الشِّعب، وكانوا رجَالاً رمَاةً فَفَر المسْلمُون، ولم يبق مع رسُول الله ﷺ إلا أبو سُفيان بن الحارث آخذٌ برأس بغلته، ونفَر قليل من أصحَابه، فجَعَل يقول وهو الذي لا يعْرف الهزيمَة: «**أين أيها النَّاس؟ هلمُّوا إلي، أنا رسُول الله، أنا محمَّد ابن عَبدالله**» ثم جَعَل يقاتل ويُركِض بغلته نحْو العَدو وهو يقول:

أنــا النَّـبي لا كَــذِب أنـا ابـن عَبْـد المطَّلِـبْ

والعباس يكف البغلة إرادة أن لا تسرع خوفًا على رسول الله ﷺ.

ثم أمرَ العباس وكان صَيتًا جَهورِي الصَّوت، أن ينَادي الأنصَار، وأصحَاب بيعَة الرضْوان، فكَروا إليه وتجمَّعوا حَوله[1]، فاشتَد النِّزال، وتقَارع الأبطَال، فقال ﷺ وهو ينظُر إلى شدَّة البأس، واحتدام المعرَكة «**الآن حَمي الوَطيس**» ثم نزَل على الأرض، فأخَذ حفنَة تراب فرَمَى بها وجُوههم وقال: «**شَاهَت الوجُوه**» فمَا خَلق الله منهم إنسَانًا إلا ملأ عينيه ترَابًا بتلك القبضَة، فوَلوا على أدبَارهم مدبرين، ونصَر الله رسوله والمؤمنيْن[2].

ومَع هذا كُله فقَد كَانَت شَجَاعته ﷺ شَجَاعةً من غير بطش، وقتالاً من غَير تعَد أو ظُلم، وإقدَامًا من غَير حِقدٍ أو انتقَام، فلا يبتَدئ بقتَال أحدٍ حتى يُعذره ويُنذره، ثم يخَيره بين الإسْلام أو الجزية، فإن أبى قاتلَه ونازَله، وكان يأمر سَراياه وبعُوثه وجُيوشه، ألا يغلُّوا ولا يغدرُوا، ولا يقتلوا صَغيراً أو امرَأة، أو راهبًا في صَومعته، أو شَيخًا كَبيراً، وكان يأمُرهم بالإحسَان إلى الأسْرى، ويُرسِّخ ذلك عمَليًا أمام أعينهِم، كمَا في قصَّته مع ثُمامة بن أُثال، وكان مع أعدائه خير من

(١) أخرجه النسائي (٨/٤١)، وعبد الرزاق (٥ /٣٧٩)، وأخرجه البخاري ومسلم مختصراً.
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٢٨)، ومسلم (٢٤٩٨).



الناس مع أصحَابهم وأحبَابهم، فهكذا كانت هي سيرة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحَياته وشَجَاعته، مع البعيد والقَريب، والعدو والصَّديق، فشَاهت وجُوه عبَّاد الصَّليب، الذين أظلمت وانعَكسَت في أعينهم الحقَائق، فرَأوا الحق باطلاً والباطل حَقاً.





رحْمَةٌ للعَالمِيْن

لقد امتزَجت الرحمَة، وخالط الكرم، وضَوَّعت المحبة خَلايا دمه، ومنَاسم عُروقه، عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فلم يكن يفرق بين أن يقف لأجل مشكِلة ناقة وجمل، أم من أجل جَارية ضاقت بها الحيَل، وانقطعَت عليها السُّبل، أم لأجل صَبي أحب أن ينفُث مشَاعره، ويبُث هموم صبَاه، أم لأعرابي خلِق الثوب، جاف الطبَاع، كل ذلك في ميزانه سوَاء ؛ وأن يقف لأجل قبيْلة بكاملها، أو سادَات قوم، أو فرسَان بواسِل، أو خطَباء مفَوهين، فلم يكن شرَف النبوة، وكَرَم الرسَالة، ورفعَة الجَاه، يحول بينه وبين أن يمشي في حاجَة الصغِير قبل الكبير، والجَارية قبل السَّيد، والحيوان والبهيمَة والطيْر.

في أحَد أسفاره ومعه أصحابُه – رضوان الله عليهم – ذهَب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ **لحاجَة له،** يقول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فرأينا حُمرة معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تفرش، فجاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**من فجَع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها**» ورأى قرية نمل قد حرقناها، فقال: «**من حَرق هذه؟**» قلنا: نحن، قال: «**إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا ربُّ النار**»[١].

جَـاءت إلـيـه حَـمَـامـةٌ مشتَاقة ... تشْكو إليه بقلب صَـبٍ واجِـفِ
مـن أخْـبَـر الـوَرْقـاء أن مكَانه ... حَـرَم وأنَّــك مـلجَأٌ للخَـائفِ

ودخَل ذاتَ مرةٍ في نفَر من أصحَابه بستَانـًا لرجل من الأنصَار، فإذا فيه جمَل:

(١) أخرجه أبو داود (٤ / ٣٦٧)، وصححه ابن الملقن، وقال ابن مفلح: إسناده جيد. البدر المنير (٨ / ٦٨٩)، الآداب الشرعية (٣ / ٣٥٧).

فما إن رأى رسُول الله حتى حَن الجمَل وذرَفَت عيناه، فأتاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمسَح ذفْرَاه فسَكن، ثم قال: «**مَن ربُّ هذا الجمَل؟**» فقال فتى من الأنصَار: هو لي يا رسول الله، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ألا تَتقي الله في هذه البَهيمة التي مَلكك الله إياها؟، فإنه شكَا إلي أنك تجيعُه وتدئِبُه!**»[١].

حنَّت له النُّوق من وَاد العقِيق بكَت   تجْري بأحمَالها شَوقًا للقيَاه

وفي حَجة الودَاع لما أرَاد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن ينْحَر الإبل للهَدْي كانت الإبل والنُّوق تتسَابق وتتصَارع، أيها تتشرف وتحظى بنَحر رسول الله لها بيَده الشَّريفة[٢].

فإذا كانت هذه نوق وجمَال تَدافعت وبادَرت لتحْظى بشرف نحرها له، فأين رجَال الإسْلام، وفتيَان الإيمان، من بذل الغَالي والنفِيس، وتسْخير الأوقات والأموَال، طاعة لله واتباعـًا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

وأين من ادعَوا أنهم فدوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بآبائهم وأمهَاتهم وأنفسهم، فلم تُتَرجم ذلك أعمَالهم، ولم تقم شاهِدة على ذلك أفعَالهم، «فإن محَبة رسول الله ليسَت دعوى باللسَان، ولا هُيامـًا بالوجدَان، ولا عبَارات ترَدد، ولا كلمَات تقال، ولا شعَارات ترفَع، ولا شعَائر تقَام فحسب»، وإنما هو مع ذلك انقيَاد لله وللرسول، واتباع للمنهج الذي يحمِله الرسول.

ولما كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ **يخطُب على جذْع شجَرة فصنع له منبَر ليخطُب عليه،** فلما صَعد على المنبر بكَى ذلك الجذع الذي كان يقُوم بجَانبه، حزْنـًا على

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٥٤)، وأبو داود (٢٥٤٩)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي والألباني. المستدرك على الصحيحين (٢/ ١٠٩).

(٢) الخبر عند الإمام أحمد (١٩٠٩٨٦) وصححه شعيب الأرنؤوط.



فراق ذاكَ الجسَد الطَّاهر،، واللسَان الصَادق، واليَد الشَّريفَة، ورياض الجنَّة، وبسَاتين الإيمان التي كانت تقَام بجَانبه، فنزَل الشفيق الرحيْم إلى ذلك الجِذع فاحتضَنه فجعَل يئن ويخفت صَوته كالصبي الذي يُسكَّت، حتى هدَأ وسَكن، فقال عند ذلك نبي الرحمَة: «**والله لو تركتُه لحَن إلى يوم القيَامَة!**»[١].

قال جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فضمه إليه، تئن أنين الصبي الذي يسكَّن، قال: «**كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها**»[٢].

وكان الحسَن البصْري إذا حَدث بهذا الحديث بكَى وقال: يا أهل الإيمان، جذع يحِن إلى رسول الله، أفلا تحِن إليه قلوبُكم!.

وكان صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يخفف الصلاة** التي هي قرة عينه وأنس روحه من أجل بكاء صبي؛ لئلا ينشغل قلب أمه عليه[٣].

وكان كثيراً ما يؤتى بالصبيان يحنكهم – والتحنيك أن يمضغ التمر أو نحوه ثم يدلك به حنك الصغير – فجاءت أم قيس بنت مِحصن بطفل لها فبال في حجر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فلم يغضب ولم يعتب، وإنما دعا بماء فنضحه[٤].

وعن أبي ليلى، أنه كان عند رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعلى بطنه الحسن أو

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٤٣١)، والبخاري بنحوه (٨٧٥)، قال ابن كثير: باب حنين الجذع شوقا إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وشفقا من فراقه، وقد ورد من حديث جماعة من الصحابة بطرق متعددة تفيد القطع عند أئمة هذا الشأن وفرسان هذا الميدان. البداية والنهاية (٦/ ١٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٨٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٧).

(٤) أخرجه البخاري (٢٢٣)، ومسلم (٢٨٧).



الحسين، فبال حتى رأيت بوله على بطن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أساريع قال: فوثبنا إليه، فقال: «**دعوا ابني، أو لا تفزعوا ابني**» ثم دعا بماء فصبه عليه[1].

وكان يخطب ذات مرة، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المنبر، فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «**صدق الله ورسوله:** ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (سورة التغابن، الآية ١٥) **نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما**»[2].

ومن عجيب تعامله ولطفه مع الصبيان أمام أقوام لم يعتادوا في الغالب على حملهم أو التبسط معهم، ما حدث به شَداد بن الهاد قال: خرج علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إحدى صلاتي العشي - الظهر أو العصر - وهو حامل الحسن أو الحسين، فتقدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوضعه، ثم كبر للصَّلاة، فصلى فسجد سجدة أطالها، قال شَداد: فرفعت رأسي، فإذا الصبي على ظهر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ساجد، فرجعت في سجودي، فلما قضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلاة، قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت سجدة أطلتها، حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك؟ قال: «**كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته**»[3].

ومن تلطفه وممازحته للصبيان ما ذكر أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان رسول

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤٠٣/ ٣١)، وصححه محققوا المسند.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣٨/ ١٠٠)، وأبو داود (١١٠٩)، والترمذي (٣٧٧٤)، وابن ماجه (٣٦٠٠)، وقال ابن عبد الهادي في التنقيح: إسناده على شرط مسلم.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٥/ ٤٢٠)، وابن أبي شيبة (١٢/ ١٠٠)، وصححه محققوا المسند.



الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: «**يا أبا عمير، ما فعل النغير؟**» طير كان يلعب به(١).

وعن يعلى بن مُرة أنهم خرجوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى طعام دعوا له، فإذا حسين يلعب في السكة، فتقدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمام القوم، وبسط يديه، فجعل الغلام يفر هاهنا وهاهنا، ويضاحكه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أخذه، فجعل إحدى يديه تحت ذقنه، والأخرى في فأس رأسه، فقبله، وقال: «**حسين مني، وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط**»(٢).

وجاءه أحد أصحابه يسأل عن شفقة ورحمة يجدها في قلبه للبهيمة عند ذبحها فكان من سؤاله: يا رسول الله إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها - أو قال: إني لأرحم الشاة أن أذبحها - فقال: «**والشاة إن رحمتها رحمك الله**»(٣).

وخرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حاجة فمر ببعير مناخ على باب المسجد من أول النهار، ثم مر به آخر النهار وهو على حاله، فقال: «**أين صاحب هذا البعير؟**» فابتغي فلم يوجد، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتقوا الله في هذه البهائم، ثم اركبوها صحاحًا، واركبوها سمانًا**» كالمتسخط آنفا(٤).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٩/ ٢٣٣)، وابن أبي شيبة (١/٤٠٠)، وابن ماجه (٣٧٢٠)، والترمذي (٣٣٣)، وصححه أبو نعيم في الحلية، وذكر أنه ثابت من غير وجه من حديث ابن عيينة (٧/ ٣٦٢)، وصححه ابن عساكر.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١/ ١٠٢)، وابن حبان (٦٩٧١)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ١٩٠)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٤ / ٣٥٩)، وصححه الحاكم وابن القيم. المستدرك (٤ / ٢٥٧)، جلاء الأفهام (١ / ١٦٧).

(٤) أخرجه أحمد (٤ / ١٨٠ - ١٨١)، وابن حبان (٨٤٤) وقال الألباني: سنده صحيح على شرط البخاري. سلسلة الأحاديث الصحيحة (١ / ٦٣).

ومر على رجل واضع رجله على صفحة شاة، وهو يحد شفرته وهي تلحظ إليه ببصرها، فقال: «أفلا قبل هذا! أتريد أن تميتها موتتين؟!»[١].

فإذا كانت هذه رحمته ووصيته بالحيوانات والبهائم التي لا تعقل، فكيف سيكون حاله مع من كرمه الله بالعقل من البشر؟ ولهذا اكتفيت بذلك عن ذكر حاله مع الناس ورأفته بهم.

كل القُلوب إلى الحبيب تميل	**ومعي بذلك شَاهد ودليل**
أما الدليل إذا ذكَرت محمداً	**صارت دمُوع العاشِقين تسِيل**
هذا رسُول الله هذا المصطَفى	**هذا لرَب العَالمين خليْل**
هذا الذي رد العُيون بكفه	**لما بدت فوق الخدُود تسِيل**
هذا الغمَامة ظللته إذا مشَى	**كانت تقيل إذا الحبيْب يقيل**
صلّى عليك الله يا عَلم الهدى	**ما حَن مشتَاق وسَار دليْل**



(١) رواه الطبراني في الأوسط (٤ / ٥٤)، والحاكم (٤ / ٢٥٧)، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي والألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة (١ / ٦٤).



دَلائِل النُّبوَّة

في كلام الله وإعجازه غُنية عن كل آيَة وكرامة، ومع ذلك فقَد أيد الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمعجزات وآيات بهَرت كل من رآهَا، ثبتت بها الأخبَار، ونقلها الصحابَة الأخيار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومما ورد مما صح به النقل حديث جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سرنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى نزلنا واديًا أفْيَح، فذهب رسول الله يقْضي حاجَته، فلم يَر شَيئًا يستَتر به، وإذا بشَجَرتين في شَاطئ الوَادي، فانطَلَق إلى إحدَاهما فأخَذ بغصن من أغصَانها، فقال: «**انقَادي علي بإذْن الله**» فانقَادَت معه كالبَعير المخْشُوش - سريْع الانقيَاد - الذي يصانع قائدَه، حتى أتى الشجَرة الأخْرى فأخذَ بغصْن من أغصَانها، فقال: «**انقَادي علي بإذن الله**» فانقَادت معه كذَلك، حتى إذا كان بالنصْف مما بينهمَا قال: «**التَئما علي بإذن الله**»، فالتَأمتَا، فجلسْت أحدث نفسِي، فحَانت مني التفَاتة، فإذا برسول الله مقبِلاً، وإذا بالشجَرتين قد افترَقتَا كل واحدة منهما على سَاق!![1].

ومن المعجزَات التي أيده الله بها، أن المشْركين سأَلوه أن يريهم آية، فأراهم القَمَر، فانشَق حتى صار فرقَتيَن نصفَه على جبَل أبي قُبيس ونصفَه الآخر على الجبَل الذي أمَامه[2]، وقد فسر بأنه المرَاد بقوله سبحانه ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ (سورة القمر، الآية ١) ونبَع الماء من بين أصَابعه غير مَرة، وسَبح الحصَى في كَفه، ثم وضعَه في كَف أبي بكر، ثم عمَر، ثم عثمَان فسبَح، وكانوا يسمَعون تسبيْح الطعَام عنده وهو يؤكَل، وسلم عليه الحجر والشجَر ليالي بعِث، وكلمَته

(١) أخرجه مسلم (٣٠١٢).
(٢) أخرج البخاري بعضه (٦ / ١٤٢)، والإمام أحمد (٢٧ / ٣١٤).

الذراع المسمُومة، وأصيبَت رجْل عبد الله بن عتِيك الأنصَاري، فمسَحهَا فبرأَت من حينهَا، وأخبر أنه يقتُل أبي بن خَلف في أحُد، فخدشه خدشًا يسيراً فمَات، وأخبر يوم بَدر بمصَارع المشرِكين فقال: «**هذا مصْرع فلان غداً إن شَاء الله، وهذا مصْرع فلان**» فلم يعْد واحد منهم مصْرعه الذي سمَّاه، وأخبر أن طوَائف من أمته يغزُون البحْر، وأن أم حَرَام بنت مِلحَان منهم، فكَان كما قال.

وقال لعثمَان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنه سيُصيبُه بلوَى**» فقتِل، وأخبر بمَقتل الأسْود العنسي الكَذاب ليلة قُتل وبمن قتله وهو بصنعَاء اليمَن، وبمثل ذلك في قتل كسْرى، ودعا لأنَس بن مالك بطول العمُر وكثرة المَال والولَد، وأن يبارك الله له فيه، فولد له مائة وعشرون ذكراً لصُلبه، وعَاش مائة وعشْرين سنة.

وكان عُتبة بن أبي لهَب قد شق قميصَه وآذاه، فدَعَا عليه أن يسَلط الله عليه كلبًا من كلابه، فقتَله الأسَد بالزرْقاء من أرض الشَّام، وشكي إليه قحُوط المطَر وهو على المنبَر، فدعا الله عَزَّوَجَلَّ، وما في السَّمَاء قزَعَة فثَار سحاب أمثَال الجبَال، فمُطروا إلى الجمعَة الأخْرى، حتى شكي إليه كثرة المطَر، فجعل لا يشِير للسحَاب إلى ناحية إلا ذهَب إليها، وأطعم الله أهل الخندق - وهم ألف - من صَاع شعير وبهيمَة، فشبعوا وانصرفوا والطعَام أكثر مما كان.

ومسَح ضرْع شاة حَائل لم ينزُ عليها الفحل، فحَفل الضَّرع فشرب وسقَا أبا بكر، وبدَرت عَين قتَادة بن النعمَان حتى صارت في يده فرَدها، فكانَت أحسَن عينيه وأحَدّهما، وتفَل في عيني علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو أرمَد فبرأ من سَاعَته، وأطعَم في منزل أبي طلحَة ثمانين رجُلا من أقرَاص شعير جعَلها أنس في إبطه، حتى شَبعوا كلهم، ثم رَد ما بقي فيه.



ورمى الجَيش يوم حنين بقبضَة من تراب، فهزمَهم الله عَزَّوَجَلَّ وقال بعضُهم: لم يبق منا أحَد إلا امتلأت عيناه ترابا وفيه أنزَل الله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٧﴾ (سورة الأنفال، الآية ١٧).

وكان هنَاك رجل أعرابي في البَادية عند غنَمه فهجَم ذات يوم الذئْب على الغنَم فأخذ شَاةً، فلحقه الراعي فأخذها منه، فأقعَى الذئب على ذنَبه وقال: أتحرمُني رزقـًا ساقه الله إلي! فقال الرَّاعي: واعجَبـًا ما رأيت كاليوم ذِئب يتكَلم بكَلام الإنْس! فقال الذئب: ألا أدلك على أعجَب من ذلك؟ فقال الراعي: بلى، فقال: رجُل بيثْرب يخبر الناس خَبر الأمَم السابقَة، فأتى الراعي فدخَل المسْجد فأسلم ونطَق بالشهادتين، وحَدثه بقصة الذئب، فأمرَه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يقُوم على المنبَر فيحَدث بها الصحَابة، فقَام وأخبرهم بها[1]، وله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ معجِزات باهِرَة، ودَلالات ظَاهِرة، وأخْلاق طَاهِرة، أكثر وأعظم مما ذكرت، اقتصَرت على ذكر بعْض منها، وقديمـًا قيل: حسْبك من القِلادة ما أحَاط بالعُنُق.



(١) الأحاديث السابقة مما حسن إسناده أهل العلم أو صححوه، ولم أخرجها لئلا تكثر الحواشي، ينظر: «دلائل النبوة» للبيهقي أبي نعيم و«صحيح السيرة النبوية» للألباني ولأكرم العمري، و«أعلام النبوة» للماوردي.

أَخْرَجَني الجُوْع

في يوم قَائظ شديْد الوَهَج والحرَارة، أشعَلت فيه حَرَارة الشَّمس جنبَات المدينة وأرضها، وبعد الزوال حين قَام قَائم الظَّهيرة، إذا برسول الله يخْرج في هذه الأثناء على غَير عادته، فبينما هو يمشي إذا بصِديق هذه الأمة أبو بكر ومعه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قد لقيَاه في بعض الطُّرق، فتعَجب كل منهم من صَاحبه وخُروجه في هذا الوقت، فقال: «**ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟**» قالا: الجوع يا رسول الله،، قال: «**وأنا، والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا**» ، فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار فلم يجده في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أين فلان؟**» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله ما أحدٌ اليوم أكرم أضيافًا مني، قال: فانطلق، فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إياك، والحَلوب**» ، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر، وعمر: «**والذي نفسي بيده، لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم**»[(١)].

فتأمل مَنْ هَؤلاء الجَوعى الذين أخرجهم الجُوع فلم يجدوا طعَامًا يأكلونه، ولا شَيئًا يسُد مخمصَتهم!

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٦٠٩).



إنهم من لَو وزن إيمان كل واحدٍ منهم من غير صاحبيه لوزَن كل إيمان هذه الأمة بعلمَائها وعُبَّادها وشهَدائها وصَالحيهَا!.

مَضَت حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بسيطَة تضرِب أروع الأمثلَة في الزهْد وشَظَف العَيش**، وخُلو اليَد من حطَام الدنيا، يأكل يومـًا ويجُوع أيامـًا، وهو سَيد الخَلق الذي كانت تجبى له الأموال فلا يبقي منها شيئًا في يده.

وَراودَتـه الجبَال الشُّم من ذَهَبٍ ... عـن نفسِه فـأرَاهَـا أيمَا شَمَمِ

وأَكـدَ الزهْد فيهَا من ضَرورَته ... إن الضَّرورَة لا تعْدو على العِصَمِ

دخَل عليه ذاتَ يوم عمَر بن الخطَّاب في غُرفة له، فوجَدَه مضطَجعًا على حصير بالٍ أكل الفَقر أطرَافه، قد أثر في جَنبه، وتحْت رأسه وسَادة محشُوة ليفًا، وفي ناحية الغُرفة قبضَة من شعير نحو الصَّاع، فانخرَطت دموع ابن الخطاب وغَلبه البُكاء لرِقة حاله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقَال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو ينظُر إلى دمُوع عمر: «**ما يُبكيْك يا ابن الخَطَّاب؟**» فقال عمر: يا نبي الله وما لي لا أبكي، وهَذا الحصِير قَد أثر في جَنبك، وهذه خزَانتك لا أرى فيها إلا ما أرَى، وكسْرى وقَيصَر على سرُر الذهَب وفُرش الديبَاج والحَرير، وفي الثمَار والأنهَار وأنت نبي الله وصَفوته!! فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أولَئك قوم عُجلَت لهم طَيباتهم، أما تَرضى أن تكون لهَم الدُّنيا ولنا الآخرَة؟!**»[١] فقال: بلَى ولكن لو اتخَذت فراشًا ألين من هذا؟ فقال: «**مَالي وللدُّنيا، ما مثَلي ومثَل الدنيَا إلا كَرَاكِب سَار في يوم صَائفٍ، فاستَظَل تحْت شجَرَة سَاعة ثم رَاح وتَركَها**»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٧٩)، ونحوه عند البخاري (٢٤٦٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٤٤)، قال ابن كثير: إسناده جيد. البداية والنهاية (٥/ ٢٤٨).



وهذه عائشَة أم المؤمنيْن رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا دعَاها عُروة ابن الزبَير ابن أختها للغَداء فلمَّا قدمت ونظَرت إليه، التَفتت ناحيَة الجدَار وأجهَشَت بالبكَاء، فقال لها عُروة: ما بك يا أماه فقَد كَدَّرت علينا الطعَام، فقالت: يا ابن أخْتي إن كنا لنَنْظر إلى الهِلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثَة أهِلة، وما أوقدَت في أبيَات رسول الله نار، وما شَبع ثلاثَة أيام من طعَام بُر حتى فارَق الدُّنيا، فقال عروة : فما كان عَيشُكم؟ قالت: الأسْودَان التمر والماء[١].

يقول عُقبة بن الحَارث رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: صلى بنا رسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ العَصر فأسرَع وأقبَل يشق الناس من سُرعته، ودخل إلى بيَته، ثم لم يكن بأوشَك من أن خرَج فقال: «**ذكرت شيئا من تبر كان عندي فخشيت أن يحبسني فقسمته**»[٢]، هذا الذي قسَم التبْر بين الناس هو الذي تقُول عائشَة عن حال أهْله: ما شَبع آل محمَّد من خُبز البُر ثلاثـًا حتى مضَى لسَبيله، وما أكَل آل محمدٍ أكلتَين في يوم واحدٍ إلا إحدَاهما تمَر، ويقول أنس: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لقَد أخفْت في الله ما لم يخَف أحد، وأوذيْت في الله ما لم يؤْذ أحَد، ولقد أَتى علي ثلاثون ما بين يومٍ وليلَة، ومالي ولبِلال من الطعَام إلا شيءٌ يوارِيه إبِطُ بِلال**»[٣].

كان سَيد العَرب، ومالك الجَزيرَة يملأ بالأموَال صَحْن المسجِد، فيقسمها على الناس إلى آخرِ درهَم، فإذا دَخَل إلى بيته نام على جِلْد محشوٍ بليْف كما تقول عائشَة، كان فراشه من أدمٍ حشْوه ليْف.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٩٧٢).
(٢) أخرجه البخاري (١١٦٣).
(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٢٢٣٣) وصححه ابن القيم. عدة الصابرين (ص٢٩٩).



وليس الكلام هنا عن ذم المال والكسب، فالمال لا يمدح ويذم لذاته، وإنما ينظر إلى حال صاحبه معه، فإن أخذه من حرام، وأشغله عن واجب، وأنفقه في محرم كان مذموماً، وإن أخذه من حلال، واستعان به على الخير والاستغناء عما في أيدي الآخرين كان ممدوحاً، كما قال ﷺ مبيناً ذلك: «**نعما بالمال الصالح للرجل الصالح**»[1].

وقد كان نصف العشرة المبشرين بالجنة أثرياء، وإنما الكلام هنا عن زهد النبي ﷺ وبعده عن الدنيا، وشظف العيش الذين كان يعيشه.

يقول السِّير وليم مُوير: كانَت السهُولة صُورته من حَياته كلهَا، وكان الذَّوق والأدَب من أظهَر صفَاته في معَامَلته لأقل تابعيْه، فالتواضُع والشفَقَة، والصبْر والإيثَار والجود، صفَات ملازمَة لشَخصه، وجَالبة لمحَبة جميع من حَوله، فلم يعرَف عنه أنه رفَض دعوَة أقَل الناس شَأنـاً، ولا هديةً مهمَا صغُرت، وما كان يتعَالى ويبرز في مجلسِه، ولا شَعر أحَد عنده أنه لا يختصه بإقبَاله وإن كان حَقيراً.

ولسنَا في سيرة رسول الله ﷺ بحَاجة إلى أحَد، فقد اختَصه الله من بين الرسُل بوضوح حيَاته وجَلائها من جميْع النواحي، وإنما ذلك لبيَان تلك العظَمة وذلك السمُو الذي بهَر الأعداء قبل الأصدقَاء، حتى أقَرت به أقلامهُم ونطقَت بذلك ألسَنتهم، وذلك يحفِز العَزائم، ويثير الكَوامن، لدرَاسة سيرَته ليكون حَيـاً في قلوبنا كما كان حيـاً بين أصحَابه، وليعيْش المؤمن في كل حَركة ونبضَة وفكْرة من حيَاته وفق ما عاشَه رسول الله ﷺ، متبعـاً مقتفيـاً آثاره وسنتَه، **كما قال أبو علي الرَّوذَباري:** رَوائح نسِيم محَبة الرسُول تفُوح من المحبين

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٩/ ٢٩٩).



وإن كتمُوها، وتغْلب عليهم دلائلهَا وإن أخفَوها، وتدل عليهم وإن سَتروهَا[١].

فـإن فـضْـل رسـول الله لـيس له	حـدٌّ فيعرب عـنه نـاطـقٌ بفَم
كالشمس تظهر للعينين من بعدٍ	صغيرةً وتكل الطرف من أمم
أكـرم بـخَـلق نـبيّ زانــه خُـلقٌ	بالحسـن مشتمل بالبشر متَّسم
كالزهر في ترفٍ والبدر في شرفٍ	والبحر في كرمٍ والدهر في همَم



(١) طبقات الأولياء (١ / ٥٨).



مقام التعبُّد

حينما تعيْش مع سِيرَة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتتنَقل بين رياضهَا وحُقولهَا، وترى جهَاده وبذلَه وتضحيتَه، ثم تقَلب صفحَات دعوَته وهمِّه وتعليْمه، ثم تتَمَعن في قيامه بأموْر الناس وقضَاء حاجَاتهم وحَل مشَاكلهم، ثم تنظر في مقَامه مع أهله وقضَاء حَاجَاتهم والقيَام بخدمَتهم، وكل واحدٍ منها لَو أنيطَت على شُم الجبَال، وكرام الرجَال لما أطَاقوا حملَها، فتَظن عند ذلك أنه قد مَضى وقتُه للناس فلم يبق منْه شَيء، وتنسَى عندها أبرَز صفَة كانت تعيش بين جنبَيه من النسُك والتعَبد والافتقَار والإلحَاح والتضَرع إلى ربه، فقَد كان يَجد في العبَادة قُرة عينه، وطمَأنينة نفسِه.

«**وإنك لتَقف مشدُوهـًا أمام ذلك الجَمع العجيْب بين النسُك الذي بلَغ أرقَى مَراتب التعَبد،** وبين القيَام على أمُور الدنيَا التي كان يعيْش فيها بكَده، ويعُول كثيراً من الأهْل والفقَراء، ويناَضل أمة بكَاملهَا، ويسُوس دولةً فتيةً في وجه العَالم، يوفِد إلى المُلوك ويدعوهم، ويستَقبل الوفُود ويكرِمهم، ويبعَث السرايا ويقُودها، ويجَادل من حَوله من أهْل الأديَان وأهل السلطَان، ويهيىء للنصْر، ويحتَاط للهَزيمة، ويبعَث العمَّال، ويجبي الأموَال، ويقسمها بنَفسه ويشرع للناس دين الله، فيفصِّل المجمَل من الوَحي، ويوضح الغَامضَ، ويرسُم السنَن، وهو في كل ذلك يؤدي عَمَله اليَومي، وبين هذه الهمُوم والمشَاغل يتجَلى محمدٌ الناسِك العَابد الذي هو أعظَم انقطَاعـًا إلى الله واتصَالاً به ممن انقطعوا إليه في رؤوس الجبَال».

كانَت الصلاة أنسَه وميدَانه، وروحَه وريحَانته، ونزهَتَه وبستَانه،ونعيمَه وعُنوانَه، فكان إذا حَزبه أمرٌ صَلى، وكان يقُول: «**جُعلت قُرة عَيني في الصَّلاة**»[١]، ويقول لبلال: «**أقِم الصَّلاة أرحْنَا بها**»[٢].

دخَل عَطَاء وابن عمَر على عَائشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقال ابن عمَر: حدثينَا بأعجَب شيء رأيتِه من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبَكَت وقالت: كُل أمره كان عجبًا دخل علي ليْلةً من الليَالي فقال: «**يا عائشَة ذريني أتعَبد لرَبي**» فقلت: والله إني لأحِب قُربَك، وأحب أن تعَبد لرَبك، فقَام إلى القِربة فتَوضأ ولم يكْثر صَب الماء، ثم قام يصَلي، فبكى حتى بل لحيتَه، ثم سجَد فبكى حَتى بلَّ الأرض، ثم اضطَجع على جنبِه فبكَى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصَلاة الصبْح، قال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ذنبَك ما تقدم وما تأخَّر فقال: «**ويحَك يا بلال وما يمنَعني أن أبكي وقد أُنزل علي الليْلة** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٩٠) الآيات، ثم قال: «**وَيل لمن قرَأَها ولم يَتفَكر فيهَا**»[٣].

وصَلى مَرةً في قيام الليل فافتَتَح البقَرة، يقول حُذَيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقُلت يركَع عند المائة فمَضَى، فقلت: يصَلي بها في ركعَة فمَضَى، فافتتَح النسَاء، فقلت: يركَع بها، فافتتَح آل عمران حتى ختمَها، يقرأ مترَسِّلاً، إذا مَر بآية سُؤال سَأل، وإذا مَر بآية تعَوذ تعَوذ، ثم رَكَع فكَان ركوعُه نحواً من قيَامه، ثم سَجَد فكان سجُوده نحواً من ركوعِه[٤].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢١/ ٤٣٣)، والنسائي (٧/ ٦١)، وأبو يعلى (٣٥٣٠).
(٢) أخرجه أبو داود (٧/ ٣٣٨)، وصححه العراقي والألباني.
(٣) أخرجه ابن حبان (٢٦٠)، وحسنه الألباني.
(٤) أخرجه مسلم (٧٧٢).



وهذا ابن مَسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: صَليت مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذاتَ يومٍ حتى همَمت بأمر سُوء! فقالوا له: وبماذا همَمت؟ فقال: هممت أن أقعُد وأدَعَه[١]، من شدة إطالته للصلاة.

نَفْس المحِب إلى الحَبيْب تطَلع	وفُـــؤَاده مـن حُـبـه يـتـقَـطَّعُ
عـزُّ الـحَبيـب إذا خَـلا في ليلِه	بـحَبيبه يَـشْـكـو إلـيْـه ويضـرَعُ
وَيـقُـوم في الـمـحْـرَاب يشْكُو بثَّه	والـقَـلْـب منْه إلـى المحَبَّة يَنزعُ

ولقَد سرَت نسَمَات الإيمَان في كل ذَرةٍ من جسَده عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ فعَلق قلبَه بالله في كل شيء، فَهو يذكُره على كل أحيَانه، واثقٌ بوَعده، مرَاقبٌ له، مُطيعٌ، خَائف، مُحب، خَاشِع آناءَ الليل وأطرَاف النهَار، معَظم لحُرماته.

فإذا جاءه أمْر يحبُّه قال: «الحَمد لله الذي بنعْمته تَتم الصَّالحَات»[٢].

وإذا أرَاد الأكل والشُّرب قال: «بسْم الله»[٣]، **وإذا فرَغ منه قال:** «الحَمد لله كَثيرا طيبًا مباركًا فيه، غيرَ مكفيٍ ولا مُودع، ولا مسْتغنىً عنْه ربنَا»[٤].

وإذا أوَى إلى فرَاشه قال: «اللهم أسلَمْت نفسي إليك ووجَّهت وجهِي إليْك، وفوَّضت أمري إليْك، وألجَأت ظَهري إليك، رَغبةً ورهبةً إليْك، لا ملجَأ ولا منجَى منك إلا إليْك، آمنت بكتَابك الذي أنزَلت، ونبيك الذي أرسَلت»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٨٤) مسلم (٣٧٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٣) وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٧).

(٤) أخرجه البخاري (٥١٤٢).

(٥) أخرجه البخاري (٢٤٤) مسلم (٢٧١٠).



وإذا استيقَظ قال: «الحَمد لله الذي أحيَانا بعدَما أماتَنَا وإليه النشُور»[١].

وإذا لبسَ ثوبـًا جديداً قال: «الحَمد لله الذي كسَاني هذا الثَّوب ورزقَنيه من غَير حَولٍ مني ولا قُوة»[٢].

وإذَا عطَس قال: «الحَمد لله»[٣].

وكان إذا استوَى على بَعيره خَارجـًا إلى سفَر كبر ثلاثـًا ثم قال: «سبحَان الذي سخَّر لنَا هذا وما كنا له مقْرِنين...»[٤].

وإذا رَأى مبتَلى قال: «الحَمد لله الذي عَافَاني مما ابتَلاك به، وفضلَني على كَثير ممن خَلَق تفضيْلا»[٥].

وكان إذا عَلا ثنيةً كبَّر الله، وإذا هبَط سبَّح.

وإذا نزَل منزلاً قال: «أعُوذ بكلمَات الله التامَّات من شر ما خَلق»[٦].

وإذا سمع المؤذن قال مثْل ما يقُول فإذا فرَغ قال: «أشهَد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شَريك له، وأن محمداً عبْده ورسُوله، رضِيت بالله ربـًا، وبمحمدٍ رسولاً، وبالإسلام دينـًا»[٧].

وإذا حَزبَه أمرٌ صلى[٨].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١١).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٠٢٣) وحسنه الألباني.
(٣) أخرجه البخاري (٣١١٥) مسلم (٢١٦٢).
(٤) أخرجه البخاري (١٣٤٢) مسلم (٥٣٢).
(٥) أخرجه الترمذي (٣٤٣١) وصححه ابن القيم في الزاد (٢/ ٤١٨).
(٦) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).
(٧) أخرجه مسلم (٣٨٦).
(٨) أخرجه أبو داود (١٣١٩) وحسنه ابن حجر في الفتح (٣/ ٢٠٥).

وإذا قَام من الليْل قرَأ الإحدَى عشْرة آية الأخِيرة من سُورة آل عمرَان ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾[1].

(سورة آل عمران: الآية ١٩٠).

وإذا أصبَح قال: «اللهم بك أصبَحنَا وبك أمسَينا، وبك نحيَا وبك نمُوت، وإليك النشُور».

وإذا أمسَى قالهَا كذلك: «اللهم بك أمسَينا...»[2].

وإذا كَرَبه أمرٌ قال: «يا حَي يا قَيوم، برحمَتِك أستَغيْث»[3].

وهكذا كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في جَميع أحوَاله وأوقَاته، يتَنقَّل في ريَاض الذكْر وبسَاتين المعْرِفة، فإذا فرَغ من عبَادة شرَع في ذكْر، فإن فرغَ منه وجَدته في برٍّ وصدقةٍ وإحسَانٍ، وهو في سفَره وجهَاده يُعلم ويدعو إلى الله، فإذا لم يكن في هذه وجَدته مع أصحَابه يمازحُهم ويحُل مشكلاتهم، فإذا قَام منهم دخَل فكان في خدمَة أهله، فلم تَمض لحظَة ووَمضَةٌ من حياته إلا في خَير وطَاعَة وقربةٍ من الله عَزَّوَجَلَّ ويصف عبدالله بن رواحة ليله فيقول:

يبيْت يُجافي جَنبه عن فراشِه ... إذا استَثقَلت بالمشْركين المضَاجعُ

لقد ربّى نفسَه على تلك الحَال فَتربى عليها أصحابه -رضوان الله عليهم-

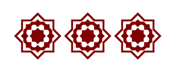
فهذا فاروق هذه الأُمة عُمر بن الخطَاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقدم عليه معاوية بن حديج رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بفتح الإسكندرية، فلما أناخ راحلته خرجت جارية لعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فرأته

(١) أخرجه البخاري (١٢٠٠) مسلم (٦٢٠).
(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٦٨) وصححه ابن القيم في زاد المعاد (٢/ ٣٣٧).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤)، وصححه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٣١٣).



وعليه أثر السفر، فأدخلته فقربت إليه خبزاً وزيتًا وتمراً، فأكل، فقال عمر لمعاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟ قال: قلت: إن أمير المؤمنين قائل، قال عمر: بئس ما قلت أو بئس ما ظننت، لئن نمت النهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية![1].

إذا قُلتَ لَيْث فهو أمْضَى عزيمةً	وإن قلتَ غَيثٌ فهو أندَى وأجوَدُ
هُــو الـمـقـتَـفـي أمــرَ الإلَــه وإنَّــه	لـيَـصـدُر عـن أمــرِ الإلَــه ويُــوردُ
مَناقب تحصَى دونَها عَدد الحَصَى	بهَا يغبَط الحُر الكَريم ويحسَدُ



(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص١٥٢)، وأورد قريبًا منه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧٣/ ٤٤)



مقام الوَفاء

من جميل الخصَال، وشَريف الخِلال، حفظ العَهد والود والإحسَان، فالحر من راعَى وداد لحظة، والكريم إذا أكرمته ملكته، ولا ينسى أولو الفضل لأصحاب الفَضل فضلهم، و«**لا يَشكر الله من لا يشكُر الناس**»[١].

وقد كان لرسول الله ﷺ في هذا المقام القدح المعَلى، فمن عظيم وفائه ما كان منه في حق ميت ذهب لن يعلم بما يفعله رسول الله من أجله، فتحدثنا أمنا أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فتقول: «ما غرت على أحد من أزواج النبي ﷺ ما غرت على خَديجة، وما بي أن أكون أدركتها؛ وما ذاك إلا لكثرة ذكر رسول الله ﷺ لها، وإن كان ليذبح الشَّاة فيتتبع بها صَدائق خديجة فيهديها لهنَّ، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة! فيقول: «**إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد**»[٢].

وكان إذا أتي بالشيء يقول: «**اذهبوا به إلى فلانة، فإنها كانت صديقة خديجة، اذهبوا به إلى فلانة فإنها كانت تحب خَديجة**»[٣].

واستأذنت هالة بنت خُويلد أخت خديجة، على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك، فقال: «**اللهم هالة**»، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فغرت منها[٤].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٣/ ٣٩٢)، والترمذي (٣٠٠٥) وصححه.
(٢) أخرجه البخاري (٣٨١٨).
(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص١٢٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٩٣) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني.
(٤) أخرجه البخاري (٣٨٢١)، ومسلم (٢٤٣٧).



وجاءت عجُوز إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو عند عائشة فقال لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أنت؟**» قالت: أنا جثامة المزَنية، فقال: «**بل أنت حسانة المزنية، كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟**» قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: «**إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان**»(١).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي هذا كله دليل لحسن العهد، وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والعشير في حياته ووفاته، وإكرام أهل ذلك الصاحب(٢).

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: ومما كافأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به خديجة في الدنيا أنه لم يتزوج في حياتها غيرها، فروى مسلم عن عائشة قالت: «لم يتزوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خديجة حتى ماتت».

وهذا مما لا اختلاف فيه بين أهل العلم بالأخبار، وفيه دليل على عظم قدرها عنده، وعلى مزيد فضلها، لأنها أغنته عن غيرها، واختصت به بقدر ما اشترك فيه غيرها مرتين، لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاش بعد أن تزوجها ثمانية وثلاثين عامًا، انفردت خديجة منها بخمسة وعشرين عامًا، وهي نحو الثلثين من المجموع، ومع طول المدة فصان قلبها فيها من الغيرة الذي ربما حصل له هو منه ما يشوش عليه بذلك، وهي فضيلة لم يشاركها فيها غيرها، ومما اختصت به سبقها نساء هذه الأمة إلى الإيمان، فسَنّت ذلك لكل من آمنت بعدها، فيكون لها مثل أجرهن(٣).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٢) وصححه ووافقه الذهبي والألباني، وخالفهم ابن حجر فضعفه.

(٢) شرح النووي على مسلم (١٥/ ٢٠٢).

(٣) فتح الباري لابن حجر (٧/ ١٣٧).



ومن جملة وفائه ما كان في حق عمه أبو طالب، فإنه ما زال يدعوه حتى وهو في فراش الموت، فلما مات على الكفر قال ﷺ: «**أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**» فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ (سورة التوبة، الآية ١١٣)، ومع ذلك شفع له عند ربه وأخبر أنه «**في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»[١].

ومن وفائه ما كان في تعامله مع أبناء ذي الجناحين، جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه **لما استشهد،** فقال لأهله: «**اصنعوا لآل جعفر طعامًا؛ فإنه قد أتاهم أمر يشغلهم**»[٢].

ثم أتاهم بعد ثلاثة أيام لما خف مصابهم فقال: «**لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعوا إلي ابني أخي**» قال عبد الله رضي الله عنه: فجيء بنا كأنا أفرُخ، فقال: ادعوا إلي الحلاق، فجيء بالحلاق فحلق رؤوسنا، ثم قال: «أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبد الله فشبيه خَلقي وخُلقي» ثم أخذ بيدي فأشالها، فقال: «**اللهم اخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه**»، قالها ثلاث مرار، قال: فجاءت أمنا فذكرت له يتمنا، وجعلت تُفرِح له، فقال: «**العَيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟!**»[٣].

ومن وفائه لصاحبه في الغار، والذي كان أسبق الرجال للإيمان به، أنه حصل

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٠١)، ومسلم (٢٠٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٣ / ١٦٤) والترمذي (٢ / ٣١٢) وابن ماجه (٢ / ٥٣٧)، وحسنه ابن كثير، وصححه ابن الملقن.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٢٧٩)، وصححه الذهبي. تاريخ الإسلام (٥/ ٤٣٠).



مرة خلاف عارض بين أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فغضب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل أنتم تاركون لي صاحبي؟ هل أنتم تاركون لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعًا، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت، وواساني بنفسه وماله**»[(١)].

ولم ينس الوصية به حتى وهو في مرضه الذي مات فيه، فقد خرج وهو عاصب رأسه بخرقة، فقعد على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**إنه ليس من الناس أحد أمن علي في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن خلة الإسلام أفضل، سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد، غير خوخة أبي بكر**»[(٢)].

وقد سبق معنا موقفه مع الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في حفظ جميل نصرتهم حين قال: «**لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار**»[(٣)].

ومن وفائه لهم أن كانت آخر وصية على المنبر في الإحسان إليهم وإكرامهم.

مر أبو بكر والعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منا، فدخل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره بذلك، قال: فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد عصب على

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦١).
(٢) أخرجه البخاري (٤٦٧).
(٣) أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).



رأسه حاشية برد من المرض، فصعد المنبر، ولم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم**»[١].

ومن وفائه لأصحابه معرفة قدرهم والذب عنهم، كما في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منوهًا بذلك: «**لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»[٢].

بل بلغ وفاؤه لرجل مات على الكفر وهو المطعم بن عدي، لأنه كان أجاره لما رجع من الطائف إلى مكة، ثم مات قبل وقوع غزوة بدر، فلما جمع الأسرى في بدر قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لو كان المطعم بن عدي حيًا، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له**»[٣].

ولما سأل هرقل أبا سفيان وكان إذ ذاك مشركًا قبل أن يسلم: «هل يغدر محمد» فقال أبو سفيان: «**لا**»[٤] .. فهذه شهادة أعدائه قبل أصحابه.

ومن وفائه لأمته ما أخبر أن «**لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا**»[٥].

بل بلغ من وفائه حفظ حق البهائم، ففي غزوة الحديبية وقفت ناقته القَصواء

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩٩).
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).
(٣) أخرجه البخاري (٤٠٢٤).
(٤) أخرجه البخاري (٢٩٤٠)، ومسلم (١٧٧٣).
(٥) أخرجه مسلم (١٩٩).



ولم تتحرك، وكانت قبل ذلك لا تسبق، فقالوا: «**خلأتِ القَصْواء، خَلأتِ الْقَصْوَاء**» – أي: حرنت ولن تقوم– فَقَالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منافحًا عنها وأنه ليس ذلك من عادتها: «**مَا خَلأتِ القَصْوَاءُ وَمَا ذاكَ لَهَا بِخُلُق، ولكِن حبَسَهَا حابِسُ الفِيلِ**»[(١)].

ومن أنبل معاني الوفاء ما صنعه مع كفار قريش لما أراد الهجرة للمدينة، وكانوا يضعون أماناتهم عنده لصدقه وأمانته، ومع أنهم آذوه وطردوه وعذبوا أصحابه وهموا بقتله، إلا أنه أقام علي بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثلاث ليال بعد هجرته، حتى أدى عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٢)].

ولله در حسَّان لما قال منافحًا عنه:

هـجـوتَ مـحـمـدًا بَـرًّا حنيفًا ... رســول الله شِـيـمـتُـه الـوفـاءُ

فـإنَّ أبـي ووالـدتـي وعِـرضـي ... لـعِـرضِ مـحـمـدٍ منكـم وِقـاءُ



(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١)، وينظر في شرح الحديث: فتح الباري لابن حجر (٥/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه البيهقي (٦/ ٢٨٩)، وقال ابن حجر: سنده قوي، وحسنه الألباني. التلخيص الحبير (٣/ ٢١٥)، إرواء الغليل (٥/ ٣٨٤).



مَقَامُ الشَّفَاعَة

لقَد كانَت جميْع المقَامَات التي مَر ذكرُها، وأجَلت النظَر فيهَا، وتنَقلت في بسَاتينها، تحْكي وتبسُط ما بَوأه الله من منزِلة، وشَرفَه من مكانَة وأعلاه من مرتَبة في الدنيَا، وأما هذا المقَام فيصَور ذلك اليَوم الذي ترسَم فيه لوحَات الشَّرف، وتقَسم فيه تيجَان الوَقَار، وترفَع فيه لأقوَام مرَاسم العِز، ويعْلو أنَاس فيه على منَابر النُّور، وتنثَر فيه الأعطيَات والهبَات والرحمَات والنفَحَات، هذا لمن أحَب الله ورسوله، وانقاد لأمر الله ورسُوله، وأما من أتبَع نفسَه هواهَا وأمضَى حيَاته في اللهْو والمنكر والمعصيَة، فتقَام له الزَّبانية، وتسَعر له النار، ويقَام في الشَّمْس حتى يلجمَه العَرق، ويصَب عليه تبكيت التقْرِيْع والتَّوبيخ، ويُكوى بلهَب الذُّل والعَار.

ففي ذلك الموطِن وذاك المقَام يذِل أقوَام ويُعز آخَرون، ويرفَع أُناس، ويُذل غيرهم، لأنه لا عَزيز إلا من أَعَزه الله، ولا شَريف إلا من رَفَعَه الله، ومن يهن الله فمَاله من مكْرم.

وفي تلك اللحَظَات، وعند ذلك الجَمع، تنقَطع جميع العَلائق والأنسَاب والأسبَاب، فلا أحَد يتكلم إلا بإذن المالك الجبار، ولا يشفَع إلا بأمره، وتنقَطِع عنده موَازين الأرْض، ومقَاييس الدنيَا، فلا آمر ولا ناهي، ولا مُدبر ولا مُصَرف، ولا قَادر ولا قَاهر، ولا أمِير ولا مَلك، ولا سَيِّد ولا مُطَاع، إلا الملك الوَاحد الصمد، ولما أن تدْرك عظَمَة ذلك الموقف وخطُورَته، وتعرِف معَايير العُلو والسُّمو فيه، فاعلم أن لنبينا أجَل وأعظَم مقَام فيه، وأرفَع مرتبَةٍ ومنزلةٍ، فلا أحَد من الخَلائق يدَانيه ولا يضَاهيه...



يـا مَـن لـه عـزُّ الـشَّـفـاعـة وحـدَه　　وهــو الــمُــنَــزه مــالَــه شُــفَــعَــاءُ

عَـرش القيَامة أنـت تَحْت لوَائه　　والـحَـوض أنــتَ حيَاله الـسَّـقـاءُ

أنــت الــذي نَـظَـم الـبـريَّـة ديـنُـه　　مــاذا يـقُـول ويـنْـظِـم الـشُّـعَـراءُ

واستَمع إليه وهو يحَدث عن ذلك المقَام: فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن رسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أُتي بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة، ثم قال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ - يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم** عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، **فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك وعلمك أسماء كل شيء، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته،، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.**

فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي عَزَّوَجَلَّ **قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.**

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله، وخليله من أهل الأرض،



اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، فضلك الله برسالته، وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفسًا لم أومر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى بن مريم.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبيا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله – ولم يذكر ذنبًا – نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد، فيأتون محمداً فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عَزَّوَجَلَّ، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع.

ففي هذه الحَال، وعند هذا المقَام، الخَلائق كلهَا مشْرئبَّة تنظُر في هذا الموقِف! وتتَأمل هذا المشهَد! ورب العِزَّة يفتح أبوَاب الإجَابة أمَام هذه الدعوَات التي يبتَهل فيها سيد الثقَلين، فما تَظن أن تكون هذه الدعوَات؟ وما ذَاك الطلَب الذي سيطلبه؟ ولأجْل من سَيشفَع ذاك اللسَان؟ إن أول كلمَة ينطق بها ويتفوه بهَا لسانه

هي: «**أمتي يا رب أمتي يا رب!**» فلم ينس فداً له نفسي ومالي وأهلِي في ذلك الموقف العَظيم، والجَمْع الهَائل، والكَرب الشَّديد، والمقَام المذهِل، أمته – عليه أزكى صَلاةٍ وسَلام – بل كانت أول دَعْوة وشفَاعةٍ قالهَا وسأل الله إجابتها، هي الدعوة لأمته، فهَل رأيت حُبـًا ورحمَةً وصدقـًا أعظَم وأجَل من هذا؟ فيَقول عند ذلك ربُّ العِزة والجَلال: «**يا محمَّد! أدخل من أمتك من لا حسَاب عليهم من البَاب الأيمَن من أبوَاب الجنَّة، وهم شُركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبوَاب**» ثم قال: «**والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وبُصرى**»[١].

وهذا هو المقَام المحمُود الذي وعدَه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ (سورة الإسراء، الآية ٧٩).



(١) أخرجه البخاري (٣١٦٢) مسلم (٣٢٧)، وهو من الأحاديث المتواترة.



﴿ وَرَحل الحَبِيْب؟! ﴾

لما تكَامَلَت الدَّعوة، وكمُلت الرسَالة، وسَيطَر الإسْلام على جَزيرَة العَرَب، ودخَل الناس في دين الله أفواجًا، بَدأَت طَلائع التَّوديع، ومَلامح الفرَاق، ومعَالم الودَاع تَظهر وتلُوح، وأنزل الله عَزَّوَجَلَّ على نبيه سُورة النصْر ليبَلغه قرب أجَله، ودنُو رحيْله، فبدَأ رسولُ الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بتوديْع الأموَات قبل الأحيَاء، فعن أبي مُويهِبة مولى رسول الله قال: بعَثني رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من جَوف الليْل، فقال: «**إني قَد أمِرت أن أستَغفِر لأهل هَذا البَقيْع، فانطَلق معي**» فانطَلَقْت معه فلما وقَف بين أظهُرهم قال: «**السَّلام عليْكم أهل المقَابر، ليهنَأ لكم ما أصبَحتم فيه مما أصبَح الناس فيه، أقبَلت الفتَن كقطَع الليل المظْلم، يتبَع آخرُها أولَها، الآخرَة شَر من الأوْلى**» ثم أقبل علي وقال: «**يا أبا مُويهِبَة، إني قد أوتيْتُ مفَاتيح خزَائن الدنيَا والخُلد فيهَا ثم الجنَّة، فخُيرت بين ذلك وبين لقَاء ربي والجنَّة**» قال: فقلت: بأبي أنتَ وأمي، فخُذ مفَاتيح خزَائن الدنيَا والخُلد فيها ثم الجنَّة، فقال: «**لا والله يا أبا مُويهبَة، لقد اختَرت لقَاء ربي والجنَّة**» ثم استَغفر لأهل البَقيع وانصَرف[١].

وذهَب لشُهداء أحدٍ فسَلم عليهم ودعَا لهم، وَفَاءً لما بذَلوه وقَدمُوه من أرواحِهم، تقول عائشَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: لما رجَع رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من البَقيْع وجدَني وأنا أجِد صُداعـًا في رأسي، وأنا أقول: وا رَأسَاه، فقال: «**بل أنا - والله يا عائشَة - وارَأساه**» قالت: ثم قال: «**وما ضَرك لومُت قبلي، فقُمت عليك وكفنتُك، وصَليت عليْك ودَفَنتك**» قالت: فقلت: والله لكَأني بك لو قد فعَلت

(١) أخرجه أحمد (٢٥/ ٣٧٦)، وحسنه ابن عبد البر في الاستذكار (٢/ ٦٤٧)، وفيه ضعف. ينظر: دلائل النبوة للبيهقي (٧/ ١٦٢).

ذلك لقد رجَعت إلى بيتي فأعرَسْت فيه ببعض نسَائك! قالت: فتبَسم رسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١].

ثم ثَقُل به المرَض فجَعَل يسأل أزواجَه: «أَين أنا غَداً» يُريد بيت عائشَة، ففَهمْن مُراده فأذنَّ له حَيث شَاء، فانتَقَل إلى بيَت عائشَة يمشي بين الفَضل بن عَبَّاس وعلي بن أبي طَالب، عاصبًا رأسَه، تخُط قدَماه في الأرض، حتى دخَل بيتها، فقَضَى عندَها آخرَ أسبُوع من حَيَاته، وكانت تقرأ عليه المعَوذَات والأدعية التي حفظَتها منْه، فكانَت تنفُث على نفسِه، وتمسَحه بيَده[٢].

فلمَّا كان السَّبت أمَر رسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر أن يصَلي بالناس فأمَّهم، فكَان الصحَابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يأتون للصَّلاة ويمرون في مجالس المدينة ولا يَرون حبيبهم، فتوَافدوا عليه يعُودونه ويسلمون عليه، ويطمئنون على صِحته، فلما كان يوم الأحَد أقبَلت فاطمَة ابنته تَمشي كأن مشيَتهَا مشيةُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدخَلَت عليه، وكَان إذا دَخلت عليه قام وسَلم عليها ورَحب بها وأجلَسها مكانه، وإذا دخَل قامَت وسَلمَت عليه ورحبَت به وأجلسَته مكانها، ولكنه هذه المرة لم يستَطع القيَام، فرَحب بها وهو جَالس وأجلسَها عن يمينه، ثم أسَر إليها حَديثًا فبَكت، ثم أسَر إليهَا حَديثًا فضَحكت، تقول عَائشَة: فقلت: ما رَأيتُ كاليَوم فَرَحًا أقرَب من حُزن، فسألتها عَما قال لها فقالت فاطمَة: ما كنتُ لأفشِي سرَّ رسُول الله، فلما قُبض النبي سألتها فقالت: أسَر إلي «**إن جبريل كان يعَارضُني القُرآن كل سنَة مرة، وإنه عَارضَني العَام مرتين، ولا أُراه إلا حَضر أجَلي، وإنك أول أهل بَيتي لحَاقًا بي**» فبكَيت، فقال: «**أمَا تَرضين أن تكوني سَيدةَ نسَاءَ أهْل**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٥١٥٦)، وحسنه الألباني.
(٢) أخرجه البخاري (٥٧٣٥).



الجَنة أو نسَاء المؤمِنين» فضَحِكت لذَلك[١].

ودَخل يوم الاثنَين: فبينَا أبو بكر يصَلي بالصحَابة صَلاة الفَجْر إذا بالسِّتر يرفَع فأطَل الحَبيب منه وهو يبتَسم، يقول أنس: فهَممنا أن نفتَتن من الفَرح، فنكص أبو بكر على عَقبَيه ليصِل الصَّف ويتقدم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأشَار إليه أن أتموا صَلاتكم[٢].

وكان قَبل ذلك قد اتقَدت حَرارة الحُمّى في بدَنه، واشتَد عليه الوجَع فقال: **«هَريقُوا علي سَبع قرَب من آبارٍ شَتى، حَتى أخرُج إلى الناس فأعهَد إليهِم»** فأقعَدوه في مخضَبٍ وصَبوا عليه الماء حتى طَفِق يقول: **«حَسبُكم»** وعند ذلك أحَس بخفَّة، فدَخَل المسْجِد مسْدِلاً ملحفَةً على منكبَيه، قد عَصَب رَأسَه بعصَابةٍ حتى جَلس على المنبَر، ثم قال: **«أيها النَّاس إلي»** فثَابُوا إليه، فخَطبَهم فكان مما قال: **«إن عَبداً خيره الله بين الدُّنيا وبين ما عندَه، فاختَار ما عندَ الله»** فبَكى أبو بكر وقال: فدَينَاك بآبائنا وأمهَاتنا، فعَجب الناس من بُكاء أبي بكر وجعَلوا يقولون: ما لهذا الشَّيخ يبكي! ولم يعْلموا أن المخَير هو رسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَبك يا أبا بكر، إن من أمَن النَّاس علي في صُحبته أبو بكر، ولو كُنت متَّخذاً خَليلاً لاتخذته خَليْلاً، ولكن أُخُوة الإسْلام ومودتُه، لا يَبقَى في المسجِد خَوخَةٌ إلا سُدت غير خَوخَة أبي بكر»[٣]، ثم عرَض نفسَه للقصَاص قائلاً **«من كُنت جَلدت له ظَهراً فهذا ظَهري فليستَقد منه، ومن كُنت شتَمت له عرضَـًا فهذا عرضي فليستقِد منه»**.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٢٦) مسلم (٢٤٥٠).
(٢) أخرجه البخاري (٦٨٠).
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٩١) مسلم (٢٣٨٢).



ورجَع عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فجعَل يزدَاد عليه الوجَع وهو يطرَح خميصَة له على وجهِه فإذا اغتَم بها كشَفَها عن وجهه فقال وهو كَذلك: «**لَعنة الله على اليَهود والنصَارى، اتخَذوا قبُور أنبيَائهم مسَاجِد**» يحَذر ما صَنعوا[١]. ودخل عليه في تلك الحَال عبد الله بن مسْعود فإذا هو يُوعَك وعَكـًا شَديداً فقال: يا رسول الله إنك توعَك وعَكـًا شَديداً؟ فقال: «**نعم إني لأُوعَك كمَا يوعَك الرجُلان منْكم**» فقال: ذاكَ أن لكَ أجرَان؟ فقال: «**نعَم**»[٢]، وكان أيام مرضه يوصِي أمتَه بأعظَم شَعيرة من شعَائر الدين فيقول: «**الصَّلاة... الصَّلاة وما مَلكَت أيمانُكم**»[٣]، حتى جَعَل يجَلجِلُها في صَدره وما يَفيضُ بها لسَانه.

نَسينا في ودَادكَ كُل غَالٍ	فأنتَ اليَوم أغلَى ما لَدَينَا
نُلامُ على مَحَبتِكم ويكْفِي	لنَا شَرَفٌ نُلامُ وما عَلينَا
ولما نَلقَكُم لكِن شَوقًا	يُذَكرُنا فكَيفَ إذا التَقينَا
تَسَلى النَّاس بالدُّنيا وإنَّا	لعَمْرُ الله بعدَك ما سَلَينَا

وأزِفَت السَّاعة التي يذل فيها الجبَّار، ويُذعِن فيها المتكبر، ويضعُف فيها القَوي، ويفتَقر فيها الغَني، وبدَأت لحَظَات الاحتضَار، وقرُبت سَاعَات الرَّحيْل، وحَانت لفتَة الوَدَاع، فوالله لو سَالت الأقْلامُ بحِبرِهَا، ونطَقَت الشِّفَاه بألسنَتِهَا، وأُعطِي الأدبَاء أزِمَّة الفَصَاحَة، وأَعِنَّة البَلاغَة على أنْ يصَوروا عظَمَة تلك اللحظَة، وكُربة ذلك الخَطْب، وفَدَاحَة تلكمُ المصِيبة، لما جَاوزوا أورَاقهُم وآذانهم، فبأيِّ

(١) أخرجه البخاري (١٢٦٥) مسلم (٥٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٤٢) مسلم (٢٥٧١).

(٣) أخرجه أحمد (٤٤ / ٨٤)، وصححه البيهقي في دلائل النبوة (٧/ ٢٠٥)، وجوده ابن الملقن في شرحه للبخاري (٢١/ ٦٤٥).



قلَم وبأيِّ عبَارة، وبأيةِ كَلمَة، أُسطِّر خَلجَات الفُؤاد، وما يحيْط بالمشَاعر، وما يثير كَوَامن النفْس، وعَوَاطف الحِس، أمَام فِراق تلك الشَّمائل، وذلك الجسَد الطاهِر، فرحَمَات ربي على تلك العين التي طالما سَهرَت وبكَت من خَشيَة الله، وتلك اليَد التي بذلت الندى والخير والمعروف، وجَاهَدَت في سبيل الله، وتلك القَدَم التي تفطرت في عبَادة الله، وذلك اللسَان الذي ما فتئ من ذكْر الله والدَّعوَة إلى الله، وذاكَ الجسَد الذي حمَل المَكَاره من جميع أبوابها فسمى بها للمَجد حتى بلغَ غَايتَه، ورَكز فيه رايتَه.

فأسندَته عائشَة عليهَا، ووضَعَته بين سَحْرها ونحرِها، فجَعل يتغَشَّاه الكَرب، وبين يدَيه رَكوَةٌ فيهَا ماء، فجَعَل يدخِل يدَيه في الماء فيَمسَح به وجهَه ويقول: «**لا إله إلا الله، إن للمَوْت لسَكَرَات**»[١].

وما عَدا أن فرَغ من السِّواك الذي بيَده، وكان آخر سُنة فعلها، ولم يغفل السنن التي يحث الناس عليها ولو دقّت حتى وهو في تلك الحالة العصيبة، رفع أصبعه وشَخَص بصَره نحو السَّقف، وتحَرَّكت شَفتَاه، فأصغَت إليه عائشَة فإذا هو يقول: «**مع الذين أنعَمت عليهم من النَّبيين والصِّديقين والشُّهداء والصَّالحين، اللهُم اغفِر لي وارحَمني، وألحِقني بالرَّفيق الأعلَى، اللهم الرَّفيق الأعلى، اللهم الرَّفِيق الأعلَى، اللهُم الرَّفيق الأعلَى**»[٢]، وكان الأنبيَاء يخَيَّرون عندَ الموْت بين البَقَاء والوَفَاة

رُوحٌ دَعَاهَا للوصَال حَبيبُها ... فَسَعَت إليْه تُطيعُه وتُجيبُهُ

يا مُدَّعي صِدقَ المحبَّة هكَذَا ... فعل الحَبيْبِ إذا دَعَاهُ حَبيبُهُ

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٨٤).

ولما كَان يتَغشَّاه الكَرب كانت ابنتُه فاطمَة عند رَأسِه فقالت: واكَربَ أبَتَاه! فقال لها: «**ليسَ على أبيْك كَربٌ بَعدَ اليَوم**» فلما مات قالت: يا أبَتَاه أجَاب ربًّا دعَاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبَتَاه إلى جبريْل نَنعَاه، فلما دُفن لقيَت أنسًا فقالت: يا أنَس كيفَ طَابَت أنفسُكم أن تحثُوا على رسُول الله ﷺ التُّراب![1].

وتسَرَّب الخَبر فأظلَمَت المدينَة على أهلهَا، واجتَمَع النَّاس في المسْجِد، وقد بلَغ بهم الهَوْل والذُّهول مبلغَه، ثم جاء أبو بكر فرفع الحجاب فنظر إليه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات رسول الله ﷺ، ثم أتاه من قبل رأسه فحدر فاه، وقبل جبهته، ثم قال: وا نبياه، ثم رفع رأسه ثم حدر فاه وقبل جبهته، ثم قال: وا صفياه، ثم رفع رأسه وحدر فاه وقبله وقال: وا خليلاه[2]، وقال: بأبي أنتَ وأمي طبْتَ حَيـًا ومَيتـًا، ما كان الله ليُذيقَك الموت مَرتين، أما الموتة التي كُتبَت عليك فقَد مِتها، ثم خرَج ودخَل على الناس في المسْجِد، فإذا عمَر قَائم يخطُب ويقول: إن رجَالاً من المنَافقين يزعمُون أن رسُول الله قد تُوفي، وإنه ما مات، لكن ذهَب إلى ربه كمَا ذهَب موسَى بن عِمرَان، وَوَالله ليَرجعن فليَقطَعن أيدي رجَال وأرجُلهم، يزعُمُون أنه مَات، فقال: اجلِس يا عمَر، فأبى عمَر أن يجلس، فتشَهد أبو بكر، فأقبل الناس إليه، وتَركوا عمَر، فقَال أبو بكر: أما بعد فَمَن كان منْكم يعبُد محمداً فإن محمَّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌ لا يموت، قال الله: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾**﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٤٤) يقول عمَر: والله، ما هو إلا أن سمعْت أبا بكر تلاها، فعرَفت أنه الحَق، فعُقِرت حتى

(١) أخرجه البخاري (٤١٩٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤٣/ ٣٥) وقال الألباني: صحيح على شرط مسلم. إرواء الغليل (٣/ ١٥٧)



ما تُقلّني قدَمَاي، وحَتى أهوَيت إلى الأرْض، وعَلمتُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مَات، ويقول ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزَل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتَلقاهَا منه الناس كُلهم، فما أسمَع بشَراً من الناس إلا يتلوهَا[١].

كَذَا فليَجل الخَطْب وليفدَح الأمرُ ... فلَيسَ لعَينٍ لم يفِضْ مَاؤهَا عُذرُ

تُـوفـيـت الآمَــال بـعْـدَ مـحـمَّـدٍ ... وأصبَحَ في شُغلٍ عن السَّفَر السَّفْرُ

ثَوى طَاهرَ الأردَان لم تبقَ رَوضة ... غَــدَاةَ ثَـوى إلا اشْتهَت أنَّها قَبْرُ

عَـلـيْك سَــلامُ الله وَقـفَــا فَإنني ... رَأيـتُ الكَريم الحُر لَيْس له عُمرُ

ثم اجتَمَع الأنصَار في سَقيفَة بني سَاعدة وَأرادوا أن ينصبوا الخَليفَة منهم، فدَخَل عليهم أبو بكر وعمَر وأبو عبيدَة، فاستَقَر أمرهم على أبي بكر فبَايعوه، فلما كان يوم الثلاثاء وأرادوا غَسْله قالوا: والله ما نَدري أنُجرد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما نجَردُ مَوتانا أم نغَسله وعَليه ثيَابه، فلما اختَلفُوا ألقَى الله علَيهم النَّوم حتى ما منهم رجُل إلا وذِقنُه في صَدره، ثم كلمَهم مكَلم من ناحيَة البَيت لا يدْرون من هو: أن اغسِلوا نبي الله وعَليه ثيَابه، فقَاموا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فغَسلوه وعليه قَميصٌ، يصُبون الماء فَوق القَميص، ويدْلكُونه بالقَميص دون أيديهم[٢] ثم تَولى دفنَه: علي والعبَّاس والفَضل وصَالح مولى رسُول الله، فلما دفَنوه دخَل عليه الصحَابة أرسَالاً يصَلون عليه كلُّ يصَلي وحدَه، فيقفُون عليه ويقولون: اللهُم إنا نشهَد أن قَد بلغَ ما أُنزل إليه، ونصَح لأمتِه، وجَاهدَ في سبيل الله، حَتى أعزَّ الله دينَه، وتمَّت كلمتُه، وأُومن به وحده لا شريك له، فاجعَلنا إلهنَا ممن يتبِع القَول الذي

---

(١) أخرجه البخاري (١١٨٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤٣/ ٣٣٢)، وأبو داود (٣١٤١)، وصححه ابن عبد البر والبيهقي. التمهيد (٢٤/ ٤٠٠)، دلائل النبوة (٧/ ٢٤٢).

أُنزل معَه، واجمَع بيننا وبينه حتى تعرفَه بنا وتعرفنَا به، فإنه كان بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا، لا نبغي بالإيمان بدَلاً، ولا نشتري به ثمنًا أبداً، وصلى عليه الرجَال ثم النسَاء ثم الصبيَان[1].

وكانت عائشَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا **قد رَأت رؤيا فعرضَتها على أبي بكر** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **وكان من أعْبَر الناس قالت:** رأيتُ ثلاثَة أقمَار وقعْن في حجرَتي فقال: إن صَدَقت رؤياك، يدفن في بيتك من خَير أهل الأرض ثلاثة، فلما قُبض رسول الله ودُفن في حُجرتها قال أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: هذا خَير أقمَارك يا عائشَة[2].

يا خَيرَ من دُفنَت في القَاع أعظُمهُ ... فَطَاب من طيبهِن القَاع والأكَـمُ
نَفسي الـفِـدَاء لقَبرٍ أنـتَ ساكنُهُ ... فيه العَفَاف وفيه الطُّهر والكَرمُ

وانطَلقَت قَرائح الصَّحَابة تُسطر عِظَم المصيبَة، وجَلالَة الخَطْب، وهولَ الفَاجعَة التي حلت ونزَلت بهم، ونثَروا حُزنهم وألمهُم على فقْد حبيبهِم وقُرة عيونهم، وبهجَة صُدورهم، فكان في مقدمتهم حسَّان بن ثابت الذي طالما نثَر الشِّعر في مَدح الرسُول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وفي هجَاء أعدَائه، فقَام ومرارة المصيبَة تكوي قلبَه وهو يقول:

بطَيبةَ رَســمٌ لـلرسُـول ومعهَد ... مُنيرٌ وقـد تعفُو الـرسُـوم وتهمُدُ
ولا تَنمحي الآيَـات من دَارِ حُرمةٍ ... بهَا منبَر الهادي الذي كَان يَصْعدُ

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٩٠) والبيهقي في دلائل النبوة (٧/ ٢٥١)، قال الذهبي: مرسل ضعيف، لكنه حسن المتن. (١/ ٥٧٩)، وقال ابن كثير: وهذا الصنيع، وهو صلاتهم عليه فرادى لم يؤمهم أحد عليه، أمر مجمع عليه لا خلاف فيه، وقد اختلف في تعليله. البداية والنهاية (٨/ ١٣٤).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ٤٨)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير وهذا سياقه، والأوسط، ورجال الكبير رجال الصحيح. مجمع الزوائد (٧/ ١٨٥).



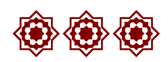
بها حُجُراتٌ كان يَنزل وسْطهَا ... مِنَ اللهِ نُورٌ يُستضَاءُ ويُوقَدُ
فَبورِكتَ يا قَبر الرسُول وبُورِكَت ... بلادٌ ثَوى فيهَا الرَّشيد المسَدَّدُ
تُهيل عليه التُّرب أيدٍ وأعُينٌ ... عليه وقَد غَارَت بذلك أسعدُ
لقَد غيَّبوا حِلمًا وعِلمًا ورَحمَةً ... عشيَّة عَلوه الثَّرى لا يُوسَّدُ
وَراحُوا بحُزنٍ ليسَ فيهم نَبيهُم ... وقَد وَهنَت فيهم ظُهور وَأعضُدُ
يبكون من تَبكي السَّموات يَومَه ... ومن قَد بَكتْه الأرْضُ فالنَّاس أكمد
وهَل عَدَلت يَومًا رَزيةُ هَالكٍ ... رَزِيةَ يوم مَات فيْه مُحمَّدُ

وقال أخُوه وابن عَمه أبو سُفيَان بن الحَارث:

أَرِقتُ فبَات ليْلي لا يَزُول ... وليْل أخي المصِيبَة فيْه طُولُ
وأَرَّقني البُكاءُ وذَاكَ فيمَا ... أُصِيبَ المسْلمُون به قليْلُ
لقَد عظُمَت مُصيبَتنا وجَلَّت ... عَشيَّة قيْل قد قُبضَ الرَّسُولُ
فَقدنَا الوَحْي والتَّنزيْل فينَا ... يَروحُ به ويغْدو جِبرئيلُ

فَلقَد كان فَقْده ووَفَاته عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أجَل مصيبَةٍ مَرت على تاريْخ الأرض، فَفَقد العُلمَاء والأوليَاء والكُبراء، والمجَاهدين والقَادة، والدُّعاةَ والمصْلحِين، لا يسَاوي ذرةً من ذَرات فَقد الحَبيب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ولا شَعرة من شَعَراته، فمن أصِيب بمصيبةٍ بعدَه فليتَعز بمصَابه به عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإنه سِلوٌ له عن كل مصِيبَة، ومع ما هو فيه من جَلاله القَدر، وعظَم الجَاه، ونُفوذ اليَد، فقَد رحَل من هذه الدنيَا كلها ودرعُه مرهُونةٌ عند يهُودي، فلَم يخَلف قصُوراً ولا أموَالاً، ولا حَدائق، ولا خَدَم، ولا تجَارة، وإنمَا خَلف شَريعةً سمَاوية، وسُنةً ربانية، وجيْلاً يعبُد الله ويوحِّد الله، ويتلوا آيَات الله، ويَدعوا إلى الله، ويجَاهد في سَبيل الله، وَرجَالاً ينشُدونَ المجْدَ، ويطلُبُون المعَالي، ويسُوسُون الأمَم، ويحَررون من الرِّق

والعُبودية لغَير الله، ويَسيرُون في الأرْضِ بالعَدل، ويُقيمُون القِسْط بين النَّاس، فنَسأل الله بأسمَائه وصفَاته أن يجمَعنَا به في جنَّته، وأن يجعَلنَا ممن ينَال شفَاعتَه، وممن يرد حَوضَه، ويقتَفي أثَره وسنَّته . . . . . إنه جواد كريم.







فِهْرس المَوضُوعَات